ثالثًا:

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

ويشتمل على التالي:

١- من أساليب الدعوة الإسلامية (أسلوب المداراة)

٢- من قضايا المصطلحات ومشكلاتها في ضوء الثقافة الإسلامية

٣- النصيحة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى

٤- ولاية الدولة الإسلامية على رعاياها المقيمين في بلاد غير المسلمين

٥- دراسة عقدية لحديث: «الشؤم في ثلاثة»

من أساليب الدعوة الإسلامية

أسلوب المداراة

إعداد

دكتور/ حسين حامد عمر الديب

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين - القاهرة

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك، و من الأمل إلا فيك، و من التسليم إلا لك، و من التفويض إلا إليك، و من التوكل إلا عليك، و من الرضا إلا عنك، و من الطلب إلا منك، و من الذل إلا في طاعتك، و من الوقوف إلا على بابك، ومن الرجاء إلا في يديك الكريمتين، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم،

اللهم تتابع برك، واتصل خيرك، وعمت آلاؤك، و تمت نوافلك، وصدق وعدك، و حق على أعدائك وعيدك، فلا تدع لنا حاجة هي لك رضا ولنا فيها صلاح إلا يسرتها وأعنتنا على قضائها يا أرحم الراحمين.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وحجته على عباده، وأمينه على وحيه، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعابدين، ومحجة للسالكين، وحجة على المعاندين، وحسرة على الكافرين، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وأنعم به على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكورا، فأمده بملائكته المقربين، وأيده بنصره وبالمؤمنين.

وأنزل عليه كتابه المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والشك واليقين، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبين، وقرن اسمه باسمه كما في الخطب والتشهد والتأذين.

وافترض على عباده طاعته ومحبته والقيام بحقوقه، وسدّ الطرق كلها إليه وإلى

جنته فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فهو الميزان الراجح الذي على أخلاقه وأقواله وأعماله توزن الأخلاق والأقوال والأعمال، والفرقان المبين الذي باتباعه يميز أهل الهدى من أهل الضلال، ولم يزل صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشمرا في ذات الله تعالى لا يرده عنه راد، صادعا بأمره لا يصده عنه صاد، إلى أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، وامتلأت به الأرض نورا وابتهاجا، ودخل الناس في دين الله أفواجا،

فلما أكمل الله تعالى به الدين، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى، والمحل الأسنى، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء، والطريق الواضحة الغراء، فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله والصالحون من عباده عليه وآله وصحبه كما وحد الله وعرف به ودعا إليه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد

فإن شَرَفَ الْمَطْلُوبِ بِشَرَفِ نَتَائِجِهِ، وَعِظَمَ خَطَرِهِ بِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، وَبِحَسَبِ مَنَافِعِهِ تَجِبُ الْعِنَايَةُ بِهِ، وَعَلَى قَدْرِ الْعِنَايَةِ بِهِ يَكُونُ اجْتِنَاءُ ثَمَرَتِهِ، وَأَعْظَمُ الْأُمُورِ خَطَرًا وَقَدْرًا، وَأَعَمُّهَا نَفْعًا وَرِفْدًا، مَا اسْتَقَامَ بِهِ الدِّينُ وَالدُّنْيَا، وَانْتَظَمَ بِهِ صَلَاحُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ؛ لِأَنَّ بِاسْتِقَامَةِ الدِّينِ تَصِحُّ الْعِبَادَةُ، وَبِصَلَاحِ الدُّنْيَا تَتِمُّ السَّعَادَةُ.

والدعوة إلى الله جل وعلا مطلبٌ لجميع المؤمنين ؛ مطلب من حيث العمل، ومطلب من حيث الغاية؛ لأن الغاية؛ غاية المجتمع المسلم أن يكون مستسلما لله جل وعلا، منقادا له في الظاهر ومنقادا له في الباطن أيضا، وهذه الغاية ينبغي للأفراد أن يسعوا في تحقيقها، وللمجتمعات أن تسعى في تحقيقها،

وكذلك لدولة الإسلام أن تسعى إلى تحقيقها، فإنّ تعبيد الناس لله جل وعلا هو

الغاية من خلقهم، فإذا أدرك الناس ذلك فاستقاموا عليه، فذلك فضل، و إلا فإن الناس يدعوا بعضهم بعضا ويُرشد بعضهم بعضا،

وكلٌ من رغب في الخير واستقام على الإسلام فإنه يروم أن يهديَ غيره؛ لأنّ في ذلك الفضل الجزيل، وفي ذلك العائدة العظمى عليه وعلى غيره، وأعظم عائدةٍ على المستقيم على الصراط أن يكون له مثل أجور من هداهم إلى الله جل وعلا،

فقد ثبت في الصحيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال:

« مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »[١].

وقد قال عليه الصلاة والسلام لعلي حين بعثه إلى خيبر «فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» [٢].

يعني من الإبل الحمراء الغالية عند أهلها، وكانت أنفس الأموال عند العرب، فأن يهدي الله على يديك واحدا من الناس رجلا أو امرأة، صغيرا أو كبيرا فإن في ذلك الفضل العظيم لك؛ ولأن تعطى كذا وكذا من الأموال الجزيلة في هذا الزمن ليس بأفضل لك من أن يُهدى على يديك رجل واحد، لكن كما نرى أن كثيرين يريدون أن يدعوا، كثيرين يريدون أن يهدوا الناس، لكن سبيلُ ذلك لا تكون ماثلة أمام أعينهم، ربما جربوا تَجارب ليست بالمستقيمة، ربما حاولوا محاولات لم تكن مؤصلة.. لم تكن عن تجربة.. لم تكن عن استرشاد بمن جرّب فنجح، فلهذا تكون خطاهم متعثّرة، وهؤلاء ربما فعلوا أشياء ودعوا، وكان في دعوتهم من الخطأ

(١) مسلم في كتاب العلم باب من سن في الإسلام ٦٢/٨ رقم ٦٩٨٠.عن أبي هريرة.

(٢) البخاري في كتاب الجهاد والسير باب فضل من أسلم ١٠٩٦/٣ رقم: ٢٨٤٧. عن سهل بن سعد رضي الله عنه

ما حجز آخرين عن قبول الحق والهدى ؛ لأن خطأ الداعية ليس كخطأ غيره، ولذلك قالوا:

إنه من سلك طريقا بغير دليل ضل، ومن تمسك بغير أصل زل.

وقد يتسبب في انتكاسة العمل الدعوي من لا يجيد التعامل مع النصوص الشرعية، ولم يكن عنده من الدربة والكياسة بحيث يضع الأدلة في مكانها الصحيح، ولا من الصبر بحيث يتريث ليستفيد من تجارب السابقين، فأضر بنفسه وبدعوته، وهو مع كل هذا حسن النية، يرجو الخير، وينشد الصلاح، ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ولهذا أمر الله جل وعلا الأنبياء جميعا بالصبر بمعناه الواسع وأن لا يستخفهم الذين لا يؤمنون، " فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ"[١]

وقال أيضا: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تستعجل لهم " [٢]

ومن أجل ذلك كان هذا البحث الذي يتناول أسلوبا من أساليب الدعوة الإسلامية، ألا وهو أسلوب المداراة..

وهو من الأساليب التي تحتاجُ إلى إيضاحٍ وتحديدٍ وتحرير، حتى تمتاز المفاهيم بين المداراة والمداهنة، فلابد من التفريق بينهما، وما ينشأ عن كلٍ منهما من مواقف.

ولقد اخترتُ هذا الأسلوب على الأخص بالدراسة وذلك لخطورةِ الخلط بين هذين الأمرين، وما ينشأُ عن ذلك من مواقف عمليةٍ خاطئة، خاصة في هذا العصر الذي من سماته التناقض والاضطراب، وفي مثل هذه الأجواءِ يتعرض الداعية لكثيرٍ من

---

(١) سورة الروم من الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأحقاف الآية: ٣٥.

المواقف، التي تفرضُ عليه المداراة، وقد يقع في المداهنةِ وهو يحسبِ أنها مداراة.

وقد يحصلُ العكس في هذه القضية، حيثُ يوجدُ من يرفض أي أسلوبٍ للمداراة، والتي قد تكون واجبةً في بعض المواقف، ظاناً أنها مداهنة، ومعلومٌ ما ينشأ من هذا الخلط من مفاسد أو تفويت للمصالح.

وهذا الأسلوب مع غيره من الوسائل والأساليب الدعوية، التي من شأنها أن تجعل الداعية سائرا على ما أمر الله جل وعلا به ورسوله، على بصيرة فيما يأتي ويذر في دعوة الناس، وإذا كان كذلك فإنّ دعوته يُرجى أن تُؤتي ثمارها – بإذن ربها – ولو بعد حين.

فاللهم إني أبرأ إليك من الحول والطول، فلا حول ولا طول ولا قوة إلا بك، وأعوذ بك من فتنة القول، كما أعوذ بك من فتنة العمل، وأعوذ بك من التكلف لما لا أحسن، كما أعوذ بك من العجب بما أحسن، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

هذا.. وقد تضمن هذا البحث مقدمة وتمهيدا وسبعة مباحث وخاتمة وثبتا بأهم المراجع التي وردت فيه على النحو التالي:

التمهيد

إنه لا يكاد يخلو مجتمع من ذي سلطان يقوم على شأن الرعية، وهذا من بدهيات علم الاجتماع وقد قالوا:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة لهم إذا جهالهم سادوا[١]

وبالطبع فإن لهذا السلطان بطانة وحاشية، ولهذه الحاشية أذناب وأتباع، وهكذا دواليك، وقد يبتعد كل هؤلاء عن الجادة، وتكون عهودهم عهود ظلام لرعاياهم، وهنا يأتي دور الدعاة إلى الله في النصح والإرشاد لولاة الأمر انطلاقا من قول

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/٣٢٠ والبيت للأفوه الأودي.

النبي صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة " قُلْنَا لِمَنْ قَالَ « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ »[١].

وقد لا يحب ذوو السلطان أن توجه لهم نصيحة، وبالتالي فهم لا ولن يحبوا الناصحين، وقد لا يقتصر الأمر على هذا، فقد يريدون أن يصدوا عن سبيل الله، ويبغونها عوجا، كل هذا وأكثر منه وارد في دنيا الناس، وتاريخ الأمم خير شاهد على ذلك..فما المخرج للدعاة من هذا المنعطف ؟ هل تكون المواجهة وهي بالطبع غير متكافئة بكل المعايير ؟

أم هل يركن الدعاة إلى الراحة والدعة والانعزالية بعيدا عن الإصلاح ومحاولة التغيير ؟

إنه لا يصح الأمران عقلا ولا شرعا، أما عدم صحة الأول عقلا، فلأنه يؤدي إلى الاصطدام وإثارة الفتن والقلاقل، وما يستتبع ذلك من إراقة الدماء، وإهدار الطاقات والقدرات، ناهيك عن القضاء على الدعوة نفسها، وهذا بالطبع غير مراد ولا مطلوب، وعدم صحته شرعا فلأن النبي صلى الله عليه وسلم ظل يدعو بمكة سنوات طوال ولم يؤثر عنه أنه كسر صنما من تلك الأصنام المرصوصة حول البيت الحرام، الذي يصلي هو فيه، ولا أمر أصحابه بذلك مع تحمسهم الشديد، واستعدادهم لتنفيذ الأمر مهما كلفهم ذلك من تضحيات، لكن فتح هذا الباب قبل أوانه قد يؤدي إلى فتنة لا يعلم إلا الله مداها، ولذلك كان ديدنه صلى الله عليه وسلم أن يقول لأصحابه " إني لم أومر بقتال "

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان باب بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ١/٥٣ رقم: ٢٠٥. عن تميم الداري رضي الله عنه.

ويتتابع نزول الوحي من السماء بكلمات متشابهة تحث على: الصفح الجميل، والهجر الجميل، والصبر الجميل، والإعراض عن المشركين..... وهكذا

أما وقد بان لك عدم صلاحية الأمر الأول عقلا ولا شرعا، فلم يتبق إلا الأمر الثاني وهو أن يترك الداعية الميدان، ويتخلى عن واجبه المقدس، منطويا على ذاته، منغلقا على نفسه، وهذا ما لا يصح بحال لا عقلا أيضا ولا شرعا.

أما عدم صحته عقلا فلأن النفس تحتاج في سيرها إلى الله تعالى إلى الجماعية لتأنس بها، وتصيبها الانعزالية بالكلال والملال، وقد تنحرف عن الطريق بالكلية، وهذا مما عرف بالتجربة، ولأنه إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية،

وما أشبه هذا المنعزل بالمعدن النفيس يوضع في بيئة رطبة حتى يأكله الصدأ، ويصبح أثرا بعد عين.

وأما عدم صحته شرعا فلأنه يخالف هدي الأنبياء جميعا وخاتمهم عليهم السلام، فإنهم واجهوا الباطل حتى كتب الله لهم النصر، وأيدهم بروح منه.

إذن كيف كانت المواجهة ؟ أراني قد أطلت عليك – أخي الحبيب – ولكن لأصل بك إلى الأسلوب الأمثل، والطريق النبوي لممارسة الدعوة في مثل هذه الظروف.. إنه أسلوب المداراة فما هي المدارة، وما الفرق بينها وبين المداهنة، وكيف يستخدمها الداعية، وما أدلتها، وما صورها ؟

وفي هذا البحث أحاول الوصول – إن شاء الله – إلى شيء من معرفة بعض ما يتعلّق بأسلوب المداراة بالاستعانة بما ورد في القرآن من آيات، وفي السنّة من أحاديث، وآثار الصحابة، والتابعين.

هذا ما سنلقي الضوء عليه في الصفحات التالية ومن الله المدد والعون..

ولكن أحب في البداية أن أذكر في هذا التمهيد تعريفا للأسلوب في اللغة والاصطلاح والفرق بين الأسلوب والوسيلة، والذي من خلاله جعلت المداراة أسلوبا

لا وسيلة:

أولا: الأسلوب:

١- في اللغة

الأسلوب: الطريق والفن. يقال: هو على أسلوب من أساليب القوم: أي على طريق من طرقهم. ويقال: أخذنا في أساليب من القول: فنون متنوّعة [١]

وجاء في أساس البلاغة"... وسلكت أسلوب فلان: طريقته. وكلامه على أساليب حسنة." [٢]

وجاء في المحيط في اللغة: والأسْلُوْبُ: الطويْلُ. وكانَ ذلك على أسْلُوْبِ الدَّهْرِ: أي على وَجْهِه، والجَميعُ الأسَالِيْبُ. وهي – أيضاً –: الطريْقُ والمَذْهَبُ، ومنه: أسَالِيْبُ الشِّعْرِ ومَذَاهِبُه.[٣]

وفي جمهرة اللغة: والأسلوب: الطريق، والجمع أساليب. ويقال: أخذ فلان في أساليبَ من القول، أي فنونٍ منه.[٤]

وفي تهذيب اللغة: أُسلوب. قال: والأسلوب: الوجه والطريق والمذهب، يقال: أنتم في أُسلوب شرّ، ويجمع أساليب.[٥]

وفي لسان العرب: وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ فهو أُسلوبٌ قال والأُسلوبُ الطريق والوجهُ والمَذْهَبُ يقال أنتم في أُسلُوبِ سُوءٍ ويُجمَعُ أَساليبَ والأُسلُوبُ الطريقُ تأخذ فيه والأُسلوبُ بالضم الفَنُّ يقال أَخَذَ فلانٌ في أَسالِيبَ من القول أَي أَفانِينَ منه.[٦]

١- القاموس المحيط، فصل السين، باب الباء، ص ١٢٥،

٢- أساس البلاغة باب س ل خ ٢٢٣/١.

٣- المحيط في اللغة باب بلس ٢٦٣/٢.

٤- جمهرة اللغة ١٥٥/١.

٥- تهذيب اللغة باب سبل ٢٨٩/٤.

٦- لسان العرب باب سلب ٤٧٩/١.

٢- الأسلوب في الاصطلاح:

للأسلوب في الاصطلاح بصفة عامة تعاريف عديدة، نكتفي بذكر ثلاثة منها:

١- الأسلوب: هو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير [١].

٢- الأسلوب: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار مفرداته [٢].

٣- الأسلوب: عرض ما يراد عرضه من معان وأفكار وقضايا في عبارات وجمل مختارة، لتناسب فكر المخاطبين وأحوالهم، وما يجب لكل مقام من المقال [٣].

وأساليب الدعوة: هي العلم الذي يتصل بكيفية مباشرة التبليغ وإزالة العوائق عنه، وهي الطريقة التي يسلكها الداعية في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، وتأدية معانيه ومقاصده من كلامه.[٤]

ويمكن تعريف الأساليب الدعوية بأنها:

تلك الطرق والفنون التي يسلكها الداعية في دعوته إلى الله والكيفيات المؤثرة المقنعة، التي يتم بها تبليغ الإسلام، والحث على تطبيقه، والعمل بأصوله وفروعه، عن طريق الوسائل؛ لأن الوسائل أوعية الأساليب،

ثانيا: بيان معنى الوسيلة

١- في اللغة: يقول العلامة ابن منظور:

الوَسِيلةُ المَنْزِلة عند المَلك ، والوَسِيلة الدَّرَجة والوَسِيلة القُرْبة ووسَّل فلانٌ إِلى الله وسِيلةً إِذا عَمِل عملاً تقرَّب به إِليه والواسِل الراغِبُ إِلى الله

قال لبيد:

أرى الناسَ لا يَدْرون ما قَدْرُ أَمرِهم.... بَلى كلُّ ذي رَأْيٍ إِلى الله واسِلُ

وتَوسَّل إِليه بوَسِيلة إِذ تقرَّب إِليه بعَمَل وتوَسَّل إِليه بكذا تقرَّب إِليه بحُرْمَةٍ آصِرةٍ تُعْطفه عليه والوَسِيلةُ الوُصْلة والقُرْبى وجمعها الوسائل

١- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية د/ أحمد الشايب ص ٤٤.

٢- خصائص القرآن الكريم د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص ١٨.

٣- المرأة المسلمة المعاصرة د. أحمد محمد أبا بطين ص ٥٢٣.

٤- فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري د/ سعيد بن علي بن وهب القحطاني ص ٤١٢/٢

قال الله تعالى أُولئك الذين يَدْعون يَبْتَغون إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ [١]

الجوهري الوَسِيلَةُ ما يُتَقَرَّبُ به إلى الغَيْر والجمع الوُسُلُ والوسائلُ والتَّوْسِيلُ والتَّوسُّلُ واحد.

وفي حديث الأذان اللهمَّ آتِ محمداً الوَسِيلَةَ [٢] هي في الأصل ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيءِ ويُتَقَرَّبُ به والمراد به في الحديث القُرْبُ من الله تعالى "[٣]

الوسيلة في الأصل: ما يتوصل به إلى الشيء [٤]

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –: " والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود "[٥]

ويقول ابن الأثير في النهاية: الوسيلة هي ما يتوصل به إلى الشيء، ويتقرب به، وجمعها وسائل [٦].

هذا عن الوسيلة في اللغة..

٢- أما الوسيلة في الاصطلاح فقد عرفت بعدة تعريفات غالبا ما تتحد في المضمون، وإن تباينت في الألفاظ، وهذه التعريفات هي جهود علماء لهم فضلهم، وباعهم الطويل في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

ومن هذه التعريفات:

١- سورة الإسراء من الآية: ٥٧.

٢- البخاري في كتاب التفسير باب سورة بني إسرائيل الإسراء ١٧٤٩/٤ رقم ٤٤٤٢.

٣- لسان العرب لابن منظور باب وسل ٧٢٤/١١.

٤- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مادة: وسل: ٥ / ١٨٥

٥- تفسير ابن كثير سورة الإسراء آية: ٥٧.

٦- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥ / ١٨٥.

- الوسائل هي ما يستعين به الداعي على تبليغ الدعوة إلى الله على نحو نافع مثمر.[١]
- هي ما يتوصل به الداعية إلى تبليغ دعوته من أشياء وأمور [٢]
- هي ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية، أو مادية " [٣]
- هي الطريقة التي يصل بها الأسلوب إلى المدعو [٤].
- القناة الموصلة للغاية، أو الأداة المستخدمة في نقل المعاني والأفكار للناس
- هي كل ما يتم به تبليغ الأساليب وحملها إلى المدعو [٥] إلى غير ذلك.

ومن مجموع تعاريف الوسيلة في اللغة والاصطلاح أستطيع القول بأن المراد من الوسائل الدعوية تلك الأمور الحسية والمعنوية التي يستخدمها الداعية في تبليغ دعوة الله للعالمين منضبطة بالشرع الحنيف.

الفرق بين الوسيلة والأسلوب

تبين لنا مما سبق أن الوسيلة هي: الأداة المستخدمة في إيصال المعاني، ونقل الأفكار من الداعي إلى المدعو.

أما الأسلوب فهو: فن العرض والتأثير والإقناع، والفرق بينهما أن الوسيلة أعم من الأسلوب إذ أنها هي الأداة التي تنقل الأسلوب وتوصله للناس.

وبناء على ما سبق فإن المداراة تعد أسلوبا من أساليب الدعوة الإسلامية لأنها فن عرض الدعوة ونقلها إلى الناس.

١- أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ص ٤٢٩.

٢- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى لسعيد بن علي القحطاني ص ١٢٦.

٣- المدخل إلى علم الدعوة للدكتور / محمد أبو الفتح البيانوني ص ٤٩.

٤- الدعوة إلى الله د. أبو المجد السيد نوفل ص ١٨٩.

٥- ركائز الإعلام في دعوة إبراهيم عليه السلام، د. سيد محمد الشنقيطي ص ٢٩.

المبحث الأول

مفهوم المداراة في اللغة والاصطلاح

أولاً: المداراة لغة

قال الأزهري: درأتَ الرجل مُدارأة: إذا اتّقيتَهُ.

وقال أبو عبيد: المداراة هاهنا مهموزة، من درأت وهي: المشاغبة، والمخالفة على صاحبك. ومنه قول الله عز وجل: {فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا} [1]

يعني اختلافهم في القتيل.

ومن ذلك قول الشعبي في المختلِعة: إذا كان الدَّرْءُ من قِبلها فلا بأس أن يأخذ منها . يعني بالدرء : النشوز، والاعوجاج، والاختلاف.

وكلّ من دفعتَه عنك فقد درأتَه .

وقال ابن السكيّت: درأته عني أدرؤه درأ: إذا دفعته.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " ادرؤوا الحدود بالشبهات " [2].

يقال: درأت فلانًا أي: دفعته. و داريته أي: لاينْتُه.[3]

قال ابن منظور: والمداراة في حسن الخلق، والمعاشرة مع النّاس يكون مهموزًا: مدارأة، وغير مهموز: مداراة .

فمن همَزه كان معناه: الاتقاء لشرّه.

ومن لم يهمزه جعله من دريْت الظبي أي: احتلت له، وختلته حتّى أصيده.

و داريته من دريت أي: ختلت. قال الجوهري: و مداراة النّاس: المداجاة، والملاينة.ومنه الحديث: " رأس العقل – بعد الإيمان بالله – مداراة النّاس " [4].

١- سورة البقرة من الآية: ٧٢.

٢- رواه أبو حنيفة عن ابن عبّاس في مسنده مرفوعًا، ص١٨٦. وضعفه الألباني. انظر: إرواء الغليل حديث رقم: ٢٣١٦، تلخيص الحبير ٥٦/٤ .

٣- تهذيب اللغة: ١٥٦/١٤.

٤- أخرَجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه، كتاب الأدب، باب ما جاء في اصطناع المعروف عن هُشيم عن عليّ بن زيد عن سعيد بن المسيب. قال يحيى بن معين: لم يسمع هُشيم من عليّ بن زيد حديث (رأس العقل). انظر تاريخه (٦٢٢/٢)، قال البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٣/٦) رقم (٨٤٤٦): وصلُه مُنكَر، وإنّما يُروى منقطعًا. أي: ملاينتهم، وحسن صحبتهم، واحتمالُهم لئلا ينفروا عنك.

و: داريت الرجل: لاينته، ورفقتُ به [1].

وعن السائب قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا يثنون علي ويذكروني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أعلمكم يعني به قلت صدقت بأبي أنت وأمي كنت شريكي فنعم الشريك كنت لا تداري ولا تماري." [2]

" وتدارئ بالهمزة من المداراة وهي مدافعة الحق فإن ترك همزها صارت من المداراة وهي المدافعة بالتي هي أحسن " [3]

ثانيًا: المداراة اصطلاحا

قال ابن حجر:" قال ابن بطّال:المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي: خفض الجناح للناس ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة " [4]

وقالوا إن: " المداراةُ سياسة رفيعة تجلِبُ المنفعة، وتدفع المضرّة، ولا يستغني عنها ملك ولا سُوقة، ولا يدع أحدٌ منها حظَّه إلا غمرته صروف المكاره." [5]

إذا فالمداراة لين الكلام والبشاشة للفساق وأهل الفحش والبذاءة، أولاً اتقاء لفحشهم، وثانيا لعل في مداراتهم كسباً لهدايتهم بشرط عدم المجاملة في الدين، وإنما في أمور الدنيا فقط، وإلا انتقلت من المداراة إلى المداهنة.

فهل تحسن فن المداراة بعد ذلك؟ كالتلطف والاعتذار والبشاشة والثناء على الرجل بما هو فيه لمصلحة شرعية، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " مداراة الناس صدقة " [6]

١- لسان العرب لابن منظور، مادة: درأ.

٢- سنن أبي داود رقم الحديث: ٤٨٣٨ وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود ٣٣٦/١٠.

٣- زاد المعاد – لابن القيم ١٥٤/١

٤- فتح الباري لابن حجر ٥٢٨/١٠.

٥- زهر الآداب وثمر الألباب: الحُصري ٤١٧/١.

٦- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢١٦/٢ رقم:٤٧١. عن جابر بن عبد الله، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

و المداراة خُلق في الإنسان، مكتسب ليُصبح له بعد ذلك سلوكًا، يُقَوِّم من خلاله معظم علاقاته الاجتماعية مع الآخرين.

وكُلَّما كان الإنسان ذا علاقة واسعة مع غيره، وتعددت مسئولياته احتاج إلى نوع من المداراة الَّتي من أبرزها: اللين.فضلا عن الدعاة !!

فمهمّة الأنبياء والرسل في نشر الدعوة إلى توحيد الله، وهداية الأمم يغلب عليها طابع المداراة فيما لا يخالف منهج الدعوة، وأهداف الداعية. فكانوا يتعاملون مع أذى المناوئين لدعوتهم بالصبر، والأناة، والحكمة، والموعظة الحسنة. مُوَجَّهِين من الله تعالى بذلك.والعامة من المسلمين في تعاملهم المعيشي مع بعضهم يُفْتَرضُ أن الشريعة الإسلامية الَّتي تحثّ على الصدق، والوفاء، والتعاون على البرّ والتقوى وإصلاح ذات البين، وإغاثة المحتاج، والإيثار هي مرشدهم في تعاملهم.

أولئك كانوا أقرب إلى الهدى من الضلال، وإلى الخير من الشرّ، حتّى إذا ابتعد أكثر النّاس عن صميم تعاليم دينهم، وخفّ لديهم الوازع الديني، وشُغلوا بالماديات في شتى أمور حياتهم، وتعلقوا بالحياة الدنيا وزخرفها، ابتدعوا من قبل أنفسهم حيلاً، وأساليب مختلفة للوصول إلى غاياتهم، لا يضرهم من تضرر إذا حققوا ما يُريدون !!

و المداراة لا تكون أبدًا على حساب العقيدة الصحيحة، ولا تنافي المروءات، ولا تكون عونًا للظالم على ظلمه.

بل هي أسلوب لحياة كريمة، ووسيلة للتوصّل إلى الحق، وتحصيل الحقوق، والمحافظة على الصّلات الإنسانية بين أفراد المجتمع، والرفق بالجاهل، والسفيه في الدعوة والإرشاد، فذلك كلّه مع صلاح النية، ومراقبة الله تعالى في السرّ والعلن في كلّ ما يأتي أو يدع وذلك معنى الإحسان: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " (١). وابتغاء وجه الله ومرضاته كفيل – إن شاء الله – بالسداد، والقبول.

---

(١) البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل ٢٧/١ رقم: ٥٠ عن أبي هريرة

إن الناس يتفاوتون في مستوى مداركهم، وفي مستوى أخلاقهم، وفي قدر ما يسكن في نفوسهم من خير أو شر، فقل أن يخلو مجتمع من أحمق أو شرير، والداعية ربما ابتلي في مجتمعه بهذا الصنف من الناس، لذا عليه أن يعرف كيف يداري الناس حسب مداركهم وأخلاقهم بالقول والفعل المناسب ليكسبهم للدعوة، أو ليدفع شرهم في أقل تقدير، ولا يفتح على نفسه ثغرة شرورهم فيخسر الكثير.

والمداراة أصلها المدافعة أو الدفع برفق،

والمداراة: هي التلطف بالمخطئ، وعدم مصارحته أو مفاجأته بحكم عمله، أو قوله، أو بالحكم عليه رجاء هدايته.

أو: هي جواز تأخير البيان من أجل التغيير، انتظار فرصة أفضل، إذا لم يترتب على التأخير مفسدةٌ أعظم.(١)

أو: هي تأخير بيان الحق دفعاً لمفسدة أكبر، أو طلباً لمصلحة شرعية أعظم، دون أن يتضمن هذا السكوت تأييداً لباطل، أو إبطالاً لحق، مع إنكار القلب في هذا كله، والعزم على الإنكار حين الاستطاعة، حسب المستطاع.

وقال الحافظ ابن حجر هي: " الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك "(٢).

وقال الإمام محمد بن يوسف الصالحي: " مُلاينة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمالهم لئلا ينفروا عنه " (٣).

وجملة هذه التعاريف وغيرها كثير وإن تباينت في المبنى إلا أنها تكاد تتفق في المعني وهو: الصبر على الأذى، ولطف المعاملة بالقول و الفعل.

وخلاصة ما سبق: إنه مما لا شك فيه أن الداعية سيتعرض إلى حالات محرجة، ومواقف صعبة، يحتاج فيها إلى حسن تصرف، وموازنة بين المصالح والمفاسد، ونظر ثاقب في عواقب الأمور.

لأجل هذا شرع الله عز وجل المداراة، وحرم في الوقت نفسه المداهنة.

١- راجع: لسان العرب باب درى، والنهاية لابن الأثير مادة: درأ، وفتح الباري (٩/ ٢٥٢).

٢- انظر فتح الباري لابن حجر ٥٢٩/١٠.

٣- سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤٧/٧. تحقيق:مصطفى عبدالواحد. مصر:المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

المبحث الثاني

الفرق بين المداراة والمداهنة

ذكرت أنه لابد أن يكون لدى الداعية المنهج الواضح، في معالجة المواقف الحرجة، والموازنةُ بين المصالح والمفاسد في الدعوة إلى الله، وما يلحق الداعية من أذى، وما يترتب عليه من إثم الكتمان والخروج من المآزق مخرجاً شرعياً، كحل مؤقت، لموقف معين، وهو هنا المداراة، وحتى لا ينزلق في المداهنة التي تفقده الثقة به، وتعطل دعوته، فضلاً عن حسابه عند ربه، كان هذا المبحث لبيان الفرق بين ما هو في باب المداراة الذي نحن بصدده، وما هو في باب المداهنة:

قال ابن بطال:وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة،

والفرق: أن المداهنة من الدهان: وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من كير إنكار عليه.

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك. " [١].

والمداهنة: هي قول الباطل، مسايرةً لقائله أو فاعله، أو المشاركةُ فيه مصانعة لأهله، أو السكوتُ عنه مع القدرة على القول أو الفعل، أو الامتناع عن قول الحق مع القدرة عليه، لمصلحة غير شرعية، شخصية كانت أو غيرها [٢].

وقيل: المداهنة: إظهار خلاف ما يبطن، مسايرةً لأهل الباطل [٣].

وقيل: هي كتمان الحق في مقام يجب بيانه.

وهذا مما حرمته الشريعة، وشنعت على فاعله، وجعلته كبيرةً من الكبائر،

١- فتح الباري لابن حجر باب المداراة مع الناس ٥٢٨/١٠.

٢- انظر مختار الصحاح، ولسان العرب مادة: دهن.

٣- التعريفات للجرجاني ص٢٣٥ .

قال تعالى: " وَدّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ " [١]

وقال سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ " [٢]

وقال تعالى: " وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ... " [٣]

وقال: ".. وتجدون من شرار الناس: ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه " [٤]

وفرق أحد العلماء بين المداراة والمداهنة فقال: " فالمداراة ما أردت به وجه الله تعالى وطريق الآخرة، من دفع عن دين، وقصدت به سلامة أخيك من الإثم وصلاح قلبه للّه تبارك وتعالى، والمداهنة ما اجتلبت به دنيا وأردت به حظ نفسك"[٥]

وقال آخر: " وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُدَاهَنَةِ وَالْمُدَارَاةِ أَنَّ الْمُدَارَةَ بَذْلُ الدُّنْيَا لِصَلاَحِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّينِ أَوْ هُمَا مَعًا فَمُبَاحَةٌ وَرُبَّمَا اُسْتُحْسِنَتْ.وَالْمُدَاهَنَةُ بَذْلُ الدِّينِ لِصَلاَحِ الدُّنْيَا"[٦]

وذكر ابن قدامة رحمه الله أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن. ومن ذلك: العفو عن الزلات، فإن كانت زلته في دينه فتلطف في نصحه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبى فالمصارحة " [٧]

وقال الجرجاني في التعريفات:

" المداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه حفظًا لجانب مرتكبه،

١- سورة القلم الآية: ٩.

٢- سورة البقرة الآية: ١٥٩.

٣- سورة آل عمران من الآية: ١٨٧.

٤- البخاري في كتاب الأدب باب ما قيل في ذي الوجهين ٢٢٥١/٥ رقم: ٥٧١١ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥- قوت القلوب لأبي طالب المكي ١٨٨/٢.

٦- بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية ٢٧٨/٤

٧- منهاج القاصدين لابن قدام المقدسي ٢/٤٠.

أو جانب غيره، أو لقلّة مبالاة في الدين [١].

وقال ابن حبان تعليقًا على حديث " مداراة النّاس صدقة "

" المداراة الَّتِي تكون صدقة للمداري هي تخلُق الإنسان الأشياء المستحسنة مع من يُدفع إلى عشرته مالم يَشُبْها بمعصية الله.

والمداهنة هي: استعمال المرء الخصال الَّتِي تُستحسن منه في العِشرة، وقد يشوبها ما يكره الله جلّ وعلا." [٢]

وقال ابن القيّم: " الفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة التلطّف بالإنسان لتستخرج منه الحقّ أو تردّه عن الباطل، والمداهنة: التّلطّف به لتقرّه على باطله وتتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق

وقد ضُرب لذلك مثل مطابق، وهو حال رجل به قرحة قد آلمته، فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها، حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب بخرقة ثم اله عنها، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها " [٣]

ولكون هذا الباب يقع فيه الخلط واللبس فقد عقد صاحب كتاب سراج الملوك فصلا في الفرق بين المداهنة والمداراة قال فيه: " من دارى سلم ومن داهن أثم. وهذا باب اختلط على معظم الخلق فداهنوا وهم يحسبون أنهم يحسنون وأنهم يدارون.

فالمداهنة منهي عنها والمداراة مأمور بها. قال الله تعالى في المداهنة: " ودوا لو تدهن فيدهنون ". واعلم أنه إذا سقمت المداراة صارت مداهنة. فالمداراة أن تداري الناس على وجه يسلم لك دينك،

١- التعريفات للجرجاني ص٢٣٥

٢- ابن حِبّان في صحيحه: حديث رقم: ٤٧١ . وقد سبق تخريج الحديث.

٣- الروح لابن القيم ص ٢٣١.

وذلك أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالت قريش: يا محمد اعبد آلهتنا سنة ونؤمن بك! فأبى. قالوا: فشهراً! فأبى. قالوا: فيوماً! فأبى. قالوا: فساعة! فأبى. قالوا: فاستعملها بيدك ونؤمن بك.

فوقف النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك وطمع إن فعل أن يؤمنوا فأنزل الله تعالى: ودوا لو تدهن فيدهنون. وقيل له صلى الله عليه وسلم: " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات " [١]

ومثاله أن يقول للظالم:أبقاك الله تعالى. ومن دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى. وهذا باب ينبغي لذوي الدين حفظه. وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض. " [٢]

ومثاله أيضا أن يجامل ويكذب على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين من أجل الدنيا، فيذهب إلى فاجر يقول له: أنت علاّمة الزمان!! وبك يحفظ الله البلاد والعباد، وأنت مجدد العصر وهذا القرن، ورأيتك البارحة بجانب الرسول عليه الصلاة والسلام وهو ما رأى في المنام شيئاً! حتى يحصل على دنيا، فهذه مداهنة محرمة ممقوتة تذهب بالدين، وهذا في دنيا الناس اليوم كثير.

حكم المداهنة:

المداهنة مخالفة للرسل وأتباعهم، وخروج عن سبيلهم ومنهاجهم، إذ هي إيثار للحظوظ النفسانية والدعة ومسالمة الناس، وترك المعاداة في الله، وتحمل الأذى في ذاته، وهذا في الحقيقة هو الهلكة؛ لأنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوالِ في الله ويعادي فيه، بل الإيمان يحصل بمراغمة أعداء الله وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه، وأي خير يبقى في قلب فقد الحياة والغيْرة والتعظيم، وعدم الغضب لله؟! وسوّى بين الخبيث والطيب في معاملته وموالاته ومعاداته؟!

والمداراة: هي درء الشر المفسد بالقول اللين وترك الغلظة، والإعراض عن الشرير إذا خيف شره، أو حصل منه ضرر أكبر مما هو متلبس به.

وإذا رغبت في كلمة عن المداهنة لتميزها عن المداراة فلتعلم أن المداهنة إظهار

١- سورة الإسراء الآيتان: ٧٤،٧٥.

٢- سراج الملوك للطرطوشي ١/١٢٢.

الرضا عن الغلط من الظلم والفسق.. ومن قول باطل أو عمل ممنوع.

والمداهنة مسلك ذميم ينطوي تحت جناحيه الكذب، وخلف الوعد.

أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب، سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة. وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده.

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه، ويعجلون إلى قول ما يشتهي.

من الأدلة الناهية عن المداهنة:

١- يقول الله عز وجل: " فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ "[١]

ولعلماء التفسير أقوالٌ مختلفة في معنى المداهنة، يجمعها معنى واحد كما سيتضحُ ذلك من عرضِ أقوالهم، وأنَّ الاختلاف هُنا اختلافُ تنوع لا اختلاف تضاد.

نقل القرطبي- رحمه الله- في تفسيره عن ابن عباس- رضي الله عنهما- وعطية والضحاك والسد ي في قوله تعالى: " وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ": ودُّوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم.

وعن ابن عباس أيضًا: ودُّوا لو ترخص لهم فيرخصون لك.

وقال الفراء والكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك.

والإدهان: التلين لمن لا ينبغي له التليين، قاله الفراء.

وقال مجاهد: المعنى ودُّوا لو ركنت إليهم، وتركت الحق فيمالئونك،

وقال الحسن: ودُّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعوكَ في دينهم... إلخ.

---

(١) سورة القلم الآيتان: ٨، ٩.

ثم قال القرطبي قلت: كُلُّها إن شاءَ الله صحيحة على مقتضى اللغةِ والمعنى، فإنَّ الإدهان: اللينُ والمصانعة، وقيل مُجاملة العدو ممايلته "[١]

ويعلق سيد قطب- رحمه الله تعالى- حول هذه الآية فيقول:

".. فهو المساومة إذن، والاعتقاد في منتصفِ الطريق، كما يفعلون في التجارة، وفرقٌ بين الاعتقادِ والتجارة كبير، فصاحبُ العقيدة لا يتخلى عن شيءٍ منها، لأنَّ الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنَّها حقيقةٌ واحدةٌ متكاملة الأجزاء، لا يطيعُ فيها صاحبها أحدًا، ولا يتخلى عن شيءٍ أبدًا، وما كان يمكنُ أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصفِ الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق "[٢].

٢- ويقول الله عز وجل: " فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً "[٣]

٣- ويقول الله عز وجل: " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً "[٤]

ومن الآياتِ السابقةِ يتبينُ أنَّ المداهنةَ مُحرمةٌ بجميع صورها، لأنَّ محصلة أعمال المداهنة هو النقص في الدين والنيل منه.

والحاصلُ أنَّ أيِّ عملٍ تتعارضُ فيه المصالح والمفاسد، فإنَّ ما كان محصلتهُ ثلم الدين أو أهله فإنَّه محرمٌ ولا يجوزُ الإقدامُ عليه، بل تجبُ فيه المداراة.

وما كان محصلتهُ الإبقاء على الدين والمحافظةِ عليه، فإنَّهُ جائزٌ فعله، بل واجبٌ في بعض الأحيان.

---

(١) تفسير القرطبي – سورة القلم.

(٢) في ظلال القرآن – سورة القلم.

(٣) سورة الإنسان الآية: ٢٤.

(٤) سورة الإسراء الآيات: ٧٣-٧٥.

وخلاصة ما سبق:

يتبينُ الفرق الواضح بين المداهنة والمداراة، وأنَّهُ لا يجوزُ لنا بحالٍ من الأحوال أن نخلطَ بين هذين المفهومين حتى لا نثلمَ ديننا بحجةِ المداراة، أو أن نُقدم على أمورٍ يعقبها مفاسد على هذا الدين، خوفًا من أنَّ إحجامنا عنها يوقِعنا في المداهنة، وأخيرًا: أستطيع القول بأنَّ حقيقة المُداراة أو المداهنة مبنيّ على قاعدةٍ شرعيةٍ عظيمة، ألا وهي قاعدة سد الذرائع، فما كان ذريعةً لثلمِ الدين أو أهله بصفةٍ خاصة أو عامة، فهو مداهنة، وما كان ذريعةً لحفظِ الدين وأهله بصفةٍ خاصةٍ أو عامة، فهو مُداراة،

فواجب الدعاة أفرادًا وجماعات، أن يُولوا هذا الموضوع أهميةً كبيرة، وأن يصنفُ الداعية أقوالهُ وأعمالهُ على ضوءِ هذه القاعدة الشرعية العظيمة، حتى لا يقعُ في المداهنة، المعلوم حرمتها، ظناً منه أنها مُداراة أو يجازفُ في أمورٍ تعودُ بالمفسدةِ على هذا الدين أو أهله، ظنًا منه أنَّ الإحجام عنها مُداهنة فيكونُ بذلك معول هدم للدعوة المنسوب إليها من حيث لا يدري.

حكم المداراة:

المداراة مشروعة؛ لأنها دفع للشر وردّ له، أو تخفيف له، ولأن في استعمالها بُعْدًا عن الفحش والتفحش، ولأنها من باب ارتكاب أخف الضررين، وأدنى المفسدتين، وفعل أعلى المصلحتين،

والعمدة في هذا الباب ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها -: أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه و سلم فلما رآه قال " بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة ". فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه و سلم في وجهه وانبسط إليه فلما انطلق الرجل قالت عائشة يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم " يا عائشة

متى عهدتني فحاشا إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره "[١]

قال ابن حجر: وهو عند الحارث بن أبي أسامة من حديث صفوان بن عسّال نحو حديث عائشة، وفيه: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنّه منافق أداريه عن نفاقه، وأخشى أن يُفسد عليَّ غيره "[٢].

فأوضحت رواية ابن عسّال المعنى الَّذي من أجله قال الرسول صلى الله عليه وسلم ما قال للرجل، ثمَّ الَّذي فعله معه بعد رؤيته من تطلق وجهه، وانبساطِ له فقد علِم عن طريق الوحي حقيقته، وكان يعلم صلى الله عليه وسلم أنّ له أتباعًا يطيعونه ويُصغُون لحديثه.

وقيل إن الرجل هو عيينة بن حصن الفزاري المعروف بالأحمق المطاع وهو فزاري من بني بدر، وهي أسرة لها قدم في العرب، وهم الذين يقول فيهم حاتم الطائي وهو من هو :

إن كنت كارهة معيشتنا هاتي فحلي في بني بدر
الضاربين، لدى أعنتهم والطاعنين وخيلهم تجري[٣]

فلو آذاه صلى الله عليه وسلم بكلمة لذهب وأفسد عليه القبائل وردهم عن الإسلام، وكان عيينة سيئاً في بادئ أمره حتى استقر الإيمان في قلبه.

ولو أغلظ له النبي صلى الله عليه وسلم، أو صدَّه عن لقائه، لأوغر صدور أتباعه عليه، وحملهم على العصيان والكفر. ودور الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) البخاري في كتاب الأدب باب المداراة مع الناس ٢٢٧١/٥ رقم: ٥٧٨٠.

(٢) - فتح الباري: ٥٢٩/١٠ .وانظر: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي. كتاب الأدب، باب في مداراة النّاس، ٧٩٢/٢ رقم الحديث: ٨٠٠.

(٣) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٢٠٢/١.

يرتكز على دعوة النّاس بالتي هي أحسن

فالحديث – كما قال ابن حجر – أصل في المداراة.[١]

وهو كذلك، فالداعية عليه أن يتحلى بأنواع الصبر، ويداري في دعوته أصناف النّاس، بلطيف الكلام، وحسن التصرف.

وقال الخطابي:

يجمع هذا الحديث عِلْمًا، وأدبًا، وليس قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بالأمور الّتي يَسِمُهم بها، ويضيفها إليهم من المكروه غِيبةً وإثمًا، كما يكون ذلك من بعضهم في بعض. بل الواجب عليه أن يبيّن ذلك، ويفصح به، ويعرّف النّاس أمره، فإن ذلك من باب النصيحة، والشفقة على الأمّة. ولكنّه لِمَا جُبِلَ عليه من الكرم، وأُعطِيَهُ من حسن الخلق، أظهر له من البشاشة ولم يَجْبَهْهُ بالمكروه، لتقتدي به أمّته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شرّه، وغائلته[٢].

وقال القاضي عياض:

وأما إلانة القول له بعد أن دخل فعلى سبيل التألُّفِ له ولأمثاله على الإسلام[٣]

وعن نجيد بن عمران بن حصين، عن أبيه: " أنه أعطى شاعراً، فقيل له: يا أبا نجيد، أتعطي شاعراً؟! قال: إني أفتدي عرضي منه ".[٤]

وعن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٤٥٤/١٠.

(٢) أعلام الحديث للخطابي ٢١٧٩/٣ – ٢١٨٠ .

(٣) فتح الباري لابن حجر ٤٥٤/١٠ .

(٤) السنن الكبرى لأبي بكر البيهقي مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤ تحقيق: محمد عبد القادر عطا ٢٤٢/١٠ رقم: ٢٠٩٢٠.

قسم أقبية ولم يعط مخرمة شيئا فقال مخرمة يا بني انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فانطلقت معه قال ادخل فادعه لي فدعوته له فخرج النبي صلى الله عليه و سلم وعليه قباء منها فقال خبأت لك هذا قال فنظر إليه فقال رضي مخرمة"[١] .

ومخرمة هذا هو ابن نوفل والد المِسْوَر، وكان من مسلمي الفتح، وهو أحد المؤلفة قلوبهم، وكان في خُلقه شدة، وفي لسانه بذاءة.

و قال النبي صلى الله عليه وسلم: " رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس، وأمرت بمداراة الناس كما أمرت بأداء الفرائض." [٢]

وقال الماوردي – رحمه الله –: إن الإنسان وإن كان مأمورا بتألف الأعداء، ومندوبا إلى مقاربتهم، فإنه لا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل، وجبلة لا تزول وإنما يستكفى بالتألف إظهارها، ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفاد به إنضاجها، وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره... وامزح له إن المزاح وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها... تعطي النضاج وطبعها الإحراق[٣]

والبخاري – رحمه الله – علق أثراً في الصحيح فقال:

---

(١) سنن الترمذي ١٢٣/٥ رقم: ٢٨١٨ وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ٣١٨/٦.

(٢) أخرجه الديلمي ١٧٦/١، رقم ٦٥٩.وقال الألباني في السلسلة الضعيفة: ضعيف جدا ٢١٩/٢٠ رقم: ٨١٠.

(٣) أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي ٢٢٤/١.

" ويذكر عن أبي الدرداء: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم ونكشر: من الكشر وهو ظهور الأسنان وأكثر ما يكون عند الضحك وهو المراد هنا. و(لتلعنهم) لتبغضهم "(١)

* * *

(١) البخاري في كتاب الأدب باب المداراة مع الناس ٥/ ٢٢٧٠.

المبحث الثالث

ما ورد في القرآن والسنة عن المداراة ومدلولاتها

القرآن الكريم كتاب نور وهداية " يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(١)

وهو كلام الله ووحيه إلى نبيّه – صلى الله عليه وسلم، الّذي ختم به النبوة، وقفّى به الرسل " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(٢)

وجاء القرآن الكريم في مضمونه شاملاً لما أراد الله بيانه لخلقه من أوامر ونواه، وواجبات وحقوق " مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ "(٣)

وهو " كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ "(٤)

فهاتان الصفتان العظيمتان: الشمول، والتفصيل أكسبتا معجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الخالدة قوّة الحجّة، وسلامة المنطق، ورسوخ القاعدة، وإيجابية المفهوم، واستمرارية التطبيق، وصلاح النظام، وعدم الخشية من التبديل أو التحريف " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(٥).

فلا يجد العاقل السوي عند سماعه أو تلاوته إلا أن يُذعن ويستجيب.

ومن أعرض، وناوأ، فلمرض في قلبه، أو لجهله فحوى الخطاب، أو فيه شيء

(١) سورة المائدة الآية: ١٦.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٣) سورة الأنعام من الآية: ٣٨.

(٤) سورة هود من الآية: ١.

(٥) سورة الحجر الآية: ٩.

من المكابرة قد تَسَوَّرَ بصره فأعمى بصيرته.

وقصّ فيه من القَصص أحسنه عن الأمم السابقة في العصور الغابرة، ليتفكّر، ويتذكّر، ويعتبر إنسان العصر بمن مضى، وباد، وانقرض، من الأمم، والدول، أكابر، وأصاغر، حتّى لا يغترّ أحد بقوّته، أو جبروته، أو سلطانه.

وللقرآن أساليب مختلفة باختلاف المناسبات، والوقائع، فهناك ما يتطلّب الجدل بالتي هي أحسن لتأليف القلوب، وما يصاحب ذلك من آيات باهرات، تُبهت الفاسق، وتكسر طوق المعاند، والمكابر، وتزيد المؤمن إيمانًا راسخًا.

وللباطل جولات يظهر الحقّ بعدها سيفًا يبتر علائقه. وعند مجادلة الجبابرة من أهل الظلم، والبغي في ظلمهم، وبغيهم، وجبروتهم، تظهر الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن عند المؤمنين بوحدانية الله، وتظهر سمة التعالي، والتطاول، والمكابرة عند الكافرين. ذلك لأنّ كلّ فريق ينطلق من قاعدته الّتي بنى عليها معتقده. فالمؤمن الراسخ الإيمان ذو قناعة تامة، واطمئنان قلبي لما سيؤول إليه أمره. والكافر فقد الحجّة السليمة فلجأ إلى القوّة، والأساس السليم يقوى على حمل صَرْحٍ سليم. وما كان على جرفٍ هار فإنّه ينهار.

والأنبياء والرسل من أكثر عباد الله المؤمنين حرصًا على هداية النّاس، ودعوتهم جميعًا إلى توحيد الله في العبادة. وتحذيرهم من كيد عدوهم الأول إبليس اللعين وزمرته.وقد غلب على أسلوب دعوتهم طابع الصبر، واللّين
والمداراة التي من خلالها ينفذون إلى أغراضهم النبيلة،

وأنت واجد ذلك في الأمثلة التالية:

إبراهيم عليه السلام كان أبوه آزر من أكثر المناوئين له عند دعوته له ولقومه إلى عبادة الله وحده، وقد لاقى في ذلك عنتًا شديدًا، وحرجًا بالغًا لوقوف أبيه مع المشركين ضدّ دعوته، حتّى قال له أبوه يومًا: " أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ

لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا "(١)

وقد جاء هذا الرد القاسي بعد طول استعطاف من الابن البار والنبيّ المختار إبراهيم عليه السلام تمثل في قوله له " يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا "(٢)

فاستوحش إبراهيم عليه السلام من موقف أبيه، ولكنه أبقى على شيء من البرّ له عندما " قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا "(٣)

يقول الرازي في تفسيره لآيات سورة مريم الفائتة:

" واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان ثم أمره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقروناً باللطف والرفق فإن قوله في مقدمة كل كلام { يا أبت } دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله { إني أخافُ } وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وإنما فعل ذلك لوجوه:

أحدها: قضاء لحق الأبوة على ما قال تعالى "وبالوالدين إحسانا"(٤)

والإرشاد إلى الدين من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضاف إليه رعاية الأدب

(١) سورة مريم الآية: ٤٦.
(٢) سورة مريم الآيات: ٤٢ – ٤٥.
(٣) سورة مريم الآية: ٤٧.
(٤) سورة الإسراء من الآية: ٢٣.

والرفق كان ذلك نوراً على نور.

وثانيها: أن الهادي إلى الحق لا بد وأن يكون رفيقاً لطيفاً يورد الكلام لا على سبيل العنف لأن إيراده على سبيل العنف يصير كالسبب في إعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعياً في الإغواء.

وثالثها: ما روى أبو هريرة أنه قال عليه السلام: " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أنك خليلي فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي وأن أسكنه حظيرة قدسي وأدنيه من جواري "[(١)]

غير أنّ هذا الموقف اللين لم يغير شيئًا من موقف أبيه واستمر في عدائه لدعوته.

عندها خشي عليه السلام أن ينقلب موقفه من أبيه وقومه من مفهوم المداراة إلى مفهوم المداهنة.

قال تعالى: " وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ "[(٢)]

تبيّن له من جهة الوحي أنّ أباه لن يؤمن، وأنّه يموت كافرًا.

فانقطع رجاؤه عنه، فقطع استغفاره له.

وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية المؤمن من المناوئين لدعوته، صبرًا على الأذى، ولينًا في الخطاب، ووضوحًا في البيان، والتذكير، والوعد، والوعيد. حتّى إذا سُدّت المنافذ في وجهه، واستحكم الهوى على عقل عدوه، وأظهر مقاومة

---

(١) التفسير الكبير للرازي – تفسير آيات ٤٢–٤٨ من سورة مريم.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١٤.

شرسة، تركه وما أراد، فقد أعذر إلى الله، وبرئت ذمّته، وأقام الحجّة على عدوّه.

ولإبراهيم الخليل عليه السلام في دعوته إلى الله موقف آخر مع عدو من أعداء دعوته الّذي سنّ لنفسه قانونًا يقضي بوجوب إحاطته بكل امرأة توصف بالحسن والجمال تدخل أرض مملكته ليستأثر بها لنفسه.

وجاءه خبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام، وكانت أجمل نساء الأرض. قيل له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلاّ لك. فأدرك الخليل عليه السلام أنّ الجبّار سيستدعيها إليه بالقهر، والجبروت، ولا طاقة له بردّه، ومنعه عمّا أراد، فاتّفق مع زوجه أن تقول إذا سألوها عن صِلة القرابة بينهما أنّها أخته – وأراد بذلك أخوّة الإيمان –

وفي ذلك تمويه على الكافر حتّى لا يقدم على قتله إذا علِم أنّه زوجها، ليتخلّص منه، ويأمن شرّ غيرته، ولكن ربّما حرص – الجبار – على استرضائه بوصفه أخًا لسارة طمعًا في زواجه منها عن طريق طلبها منه، ثمّ يرجو مدافعته عنها.وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفّهما، وذلك أنّ اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إن علم أنّ لها زوجًا في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه، أو حبسه وإضراره، بخلاف ما إذا علم أنّ لها أخًا فإن الغيرة حينئذٍ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به[(١)].

وصلة إبراهيم عليه السلام بربّه وثيقة، ومتينة، فأدرك عليه السلام أن للّه في ذلك الأمر حكمة، وأنّ الله لن يمكّن عدوّه من وليّه، وأنّ العاقبة للمتّقين، وهو الحفيظ العليم.

وكان من قصتّهما أنّ الله أخزى الكافر، وأبطل كيده، وكبته، وحمى عرض نبيّه،

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٦/٣٩٣ .

وأخدمها الكافر السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام[1].

فطريق إبراهيم عليه السلام في التعامل مع الكافر الجبّار أخذ جانب المسايرة، والملاينة طريقًا لمداراة الجاهل، السفيه، الأحمق.

وإبراهيم عليه السلام كان غيورًا، حتّى قيل: بأنّه صنع تابوتًا لزوجه سارة يضعها فيه كلّما تنقّل بها ليُخفيها عن أعين النّاس !!.

فلو أبدى أدنى مقاومة لتصدى له الجبّار بجبروته، وجبابرته وقضى عليه، وعلى دعوته، ولكنّ الله سلّم.

وما فعله إبراهيم عليه السلام حيال فعل الجبّار الغاشم جاء معناه في قول الله تعالى: " لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ "[2]

فقوله تعالى: " إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً " معناه: " إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مُسلم بفعل،

قال ابن عباس: فالتقية باللسان. مَنْ حُمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله، فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن ذلك لا يضره. إنما التقية باللسان.

وقال عكرمة: ما لم يُهرق دم مسلم، وما لم يستحلّ ماله.

وقال مجاهد:" إلا مصانعةً في الدنيا ومُخالقة.

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى " وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً " ٣/١٢٢١ رقم: ٣١٧٩. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٢٨.

وقال أبو العالية: التقيَّة باللسان وليس بالعمل. [1]

وموقف يوسف عليه السلام مع إخوته الذين اتّهموه بالسرقة واتهموا شقيقه في قولهم: " إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ "[2]

. كان موقفًا حكيمًا، يتّسم صاحبه ببعد النظر وقوّة الإرادة من التحكم في النّفس ورغباتها، عند أصعب ساعات الإثارة والطغيان،

فهو أمام تهمة خطيرة، مخلّة بالشرف، ومخالفة للمروءة، ومن أقرب النّاس إليه، وكان يستطيع أن ينتقم لنفسه منهم، وأن يوقع بهم أشدّ العقوبة لمكانته الاجتماعية المتميّزة عند ملك مصر.

وقبل ذلك ما فعلوا به من إلقائه في الجبّ، وحرمانه من أبويه، وتصييره رقيقًا يباع بيع العبيد، وشريط من الذكريات المؤلمة يدور بذاكرته، حيث السجن وظلمته، والفراق عن الأهل ولوعته، و....

وها قد سنحت الفرصة، وقد أصبح وزيرًا للملك، وبيده خزائن الأرض، وجاءه إخوته مع من جاء من الفقراء المعْوزين يطلبونه رزقًا بعد أن مسّهم وأهلهم الضرُّ. ولكنه كان نبيًّا كريمًا، حكيمًا " فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ "[3]

فقد كان عليه السلام واثقًا من ربّه، ومتحصنًا بإيمانه، فلو أخذته العزة بالإثم لأمر من يفتك بهم، أو أن يطردهم شرّ طردة، وكان محقًا

ولكنه أدرك عليه السلام بأنّ فقدهم سيزيد من ألم أبيه وحزنه، وأساه

وأدركَ أيضًا أنّ للشيطان دورًا فيما وقع بينه وبين إخوته، فلا ينبغي أن يكون

(١) انظر تفسير الطبري سورة آل عمران آية: ٢٨.

(٢) سورة يوسف من الآية:٧٧.

(٣) سورة يوسف من الآية:٧٧.

عونًا له على ما أراد.

فكظم غيظه، وعفا عنهم، بعد أن عرفهم بخطئهم، وأبرَّ بوالديه، وجمع شمل أسرته.

وما كان ذلك ليتحقق لولا مشيئة الله، ثمَّ الصَّبر والملاينة، وشيء من الحيلة، والحنكة، والختل.

فقد كان عليه السلام لطيف الحيلة فتوصل إلى بغيته بالرفق، والسهولة.

وموسى عليه السلام في دعوته فرعون وقومه إلى الإيمان بالله وحده، لاقى تعنتًا شديدًا من كافر عنيد، حكمه نافذ في قومه، بل نصّب نفسه ربًا عليهم، وفرض عليهم عبادته " يَاأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ "(١) .

وكفر بمعجزات موسى إليه، لم يعتبر بواحدة منها، بل زادته إصرارًا، وتعنتًا، وطغيانًا.

شأنه خطير، وشرّه مستطير، فهذا النوع من البشر عنيد، مكابر، ذو نفوذ، وسلطان واسِعَيْن، لا يتردد، ولا يتورّع عن فعل كلّ ما يمكنه من عدوه بكل الوسائل، والطرق.

وقد واجه من يدعوه إلى دعوة تناقض كلّ مبادئه، وتسفّه كلّ أمانيه، وأحلامه، فأخذ يتخبّط في أقواله، وأفعاله " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ

(١) سورة القصص الآية: ٣٨.

مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ "(١)

إنّ طاغيةً هذا شأنه لن يكون سبيل دعوته إلى ما يخالف معتقده أمرًا سهلاً لبشر لولا عناية، ومشيئة الله. فانتدب الله إليه موسى وأخاه هارون – عليهما السلام – " اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى "(٢).

وخطّ لهما أسلوب دعوته، قال تعالى: " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى "(٣).

قال النسفي رحمه الله:

" بدأ مخاطبته بالاستفهام الّذي معناه العرض.كما يقول الرجل لضيفه:

هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه باللطف في القول ويستنزله بالمداراة من عتوّه "(٤).

يقول ابن القيم رحمه الله:

وتأمل امتثال موسى لما أمره به ربه " اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى .

كيف قال لفرعون هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر.. وقال إلى أن تزكى، ولم يقل إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة

(١) سورة الزخرف الآيات: ٥١-٥٤ .

(٢) سورة طه الآيات: ٤٢-٤٤.

(٣) سورة النازعات الآيات: ١٥-١٩.

(٤) انظر تفسير النسفي سورة النازعات آيات: ١٥-١٩.

والخير والنماء... ثم قال وأهديك إلى ربك: أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال إلى ربك استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرا ويافعا وكبيرا "[١]

ولقد بذل موسى وأخوه هارون – عليهما السلام – وسَعْيُهما في دعوة فرعون وقومه المشركين إلى الإيمان بالله وحده، ولكن ذلك الجهد المضني، وعدم التواني في الدعوة منهما لم يجديا نفعًا مع طاغية أعمى الهوى، والشيطان، وشهوة النفس بصره، وبصيرته.

فتدخلت القدرة الإلهية في التخلّص منه بإغراقه في اليمّ " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ "[٢].

فالمداراة بالملاينة من موسى وأخيه هارون – عليهما السلام – لفرعون وقومه المشركين هي من باب إقامة الحجّة عليهم " وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى "[٣]

وقال تعالى: " رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا "[٤].

فكان فرعون مدارَئًا، وموسى عليه السلام مداريًا. وكان موسى عليه السلام

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٣/٦٥٣.

(٢) سورة يونس الآيات: ٩٠-٩٢.

(٣) سورة طه الآية: ١٣٤.

(٤) سورة النساء الآية: ١٦٥.

والمؤمنون معه محكومين، وفرعون كان حاكمًا، فاقتضت الحكمة أن يراعي المحكوم الحاكم المستبد اتقاء سطوته، وجبروته للإبقاء على الداعي، ودعوته لاستمرارهما مع الآخرين، بلا إفراط ولا تفريط، وإنما مداراة، وحنكة حتَّى إذا أقام عليهم الحجة تركهم وشأنهم يواجهون مصيرهم المحتوم، وقد برأت ذمّة الداعية إن شاء الله.

وختام المسك سيدنا محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بذل في دعوته إلى توحيد الله جهده، وطاقته بأساليب، وطرق مختلفة يظهر عليها طابع الحكمة، والرويّة، والشفقة، والإحسان، والصبر الجميل، والموعظة بالتي هي أحسن

فهو رسول الله إلى الثقلين، بخلاف من سبقه من الرسل والأنبياء، فقد كان كلّ نبي يبعث في قومه خاصة.

مما جعل مهمته صلى الله عليه وسلم من أشقّ المهام، وأصعبها. إلاّ أنّ الله عز وجل أمدّه بعونه، وتوفيقه، وعصمه من الخطأ، أو الزلل، ورسم له طريق الدعوة فيما أنزل عليه من قرآن، تكفَّل بحفظه عز وجل عن الزيادة، والنقصان، فكان معجزته الخالدة، فيه البيان، والإرشاد لطريق الدعوة والهداية.

قال تعالى: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ "[١].

ففي هذه الآية الكريمة أبرز صفات الداعية وأهمّها: أن يكون الداعية ليّن الجانب مع القساة، والمتعنّتين، ممن تسوقهم قلّة درايتهم إلى استخدام ألفاظ نابية في مخاطبتهم إياه.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

أو ممن تدفعهم العصبية إلى طلب أمر من الأمور من باب التّعنّت.

وأن يكون الداعية رقيق القلب يحسن معرفة الجوانب الإنسانية عند مخاطبيه، فيراعي الفروق الفردية بينهم في الوعي والإدراك، ومعرفة عواقب الأمور. فلو كان ممن يأخذ هذا بجريرة هذاء، ويحكم على هذا في صورة هذا لوقع في قلوبهم شيء من الكراهية له، ولربما تردد الضعيف في إيصال مظلمته إليه خشية إغضابه، وحنقه عليه، فتضيع بذلك حقوقٌ لمستحقيها، وتتفتح دروبٌ من الشرّ لمنتحليها.

وأن يعفو عمن أساء، ويستغفر له إن كان ما وقع منه جهلاً، أو قصورًا في التفكير.

" فإنّ مثل هذه الأفعال الحسنة وغيرها مما يقرّب المدعو إلى الداعية. ثمّ يصل أمر الداعية إلى ذروته في الفاعلية عندما يُشعر المدعوين بقدْرهم، وقيمتهم الفكرية حين يشاورهم في الأمور الّتي لها مساس بدينهم، ودنياهم.

حينئذٍ يترسخ الولاء من التابع للمتبوع، ويستشعر الجميع أهميّة الرأي، والمشورة، فيتوحد بذلك المصير، ويصبح مشتركًا ".[١]

وفي توجيه آخر ينهى الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم من التعرض لآلهة المناوئين لدعوته، والمجاهرين بتكذيبه " وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "[٢].

فطالما أنهم لا يميزون بين الحق والباطل فيما يقولون ويفعلون، ويخضعون

(١) المُدَارَاةُ وأثرها في العلاقات العامة بين الناس د. مُحَمَّدِ بنِ سَعْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل سعود مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – العدد ١١٤ – ٤٤ / ٩٢.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.

لأهوائهم، وشهواتهم في تحديد رغباتهم، فعليكم أن تمسكوا عن ذكر آلهتهم بما يكرهون، حتّى لا يدفعهم ذلك عصبية وجهلاً إلى سبّ الله جلّ وعلا عدوانًا وظلمًا، وهذا في حال السب فما بالك بالتكسير وغيره ؟!

قال ابن العربي رحمه الله :

هذا يدل على أنّ للمحقّ أن يكفّ عن حقّ جائز يكون له إذا أدّى ذلك إلى ضرر يكون في الدين[١].

ويشبه ذلك حضور مجالس السفهاء، والتعقيب على تصرفاتهم، والتشنيع عليهم، ووعدهم، ووعيدهم بما جاء في الشريعة من أحكام على مثل أفعالهم.

فإن أحد السفهاء قد يفلت لسانه بكلمات تنال من المشرّع، أو تنقص من قدر الإسلام أو المسلمين، وربما تعرّض الداعية نفسه إلى السخرية، والأذى المادي، والمعنوي.

فالكف عن التنديد بصنيعهم مباشرة بالقول أو الفعل نوع من المداراة، والمسايرة اللتين تمتصان الكثير من غلوائهم، حتّى إذا عادت إليهم عقولهم بالتفكير المجرد في عواقب الأمور، استطاع حينئذٍ الموجهون توجيههم الوجهة الصحيحة.

ومحاولة توجيه النصيحة للفرد بعيدًا عن سماع الآخرين ومعرفتهم. فالنصيحة في الجماعة نوع من التوبيخ يأبى كثير من النّاس سماعه.

وقال تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "[٢]

فقوله تعالى: " وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " قال الزمخشري: بالطريقة الّتي هي

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٤٤ . دار الفكر العربي.

(٢) سورة النحل الآية: ١٢٥.

أحسن طرق المجادلة من الرفق، واللين من غير فظاظة، ولا تعنيف[١].

وقوله تعالى: " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "[٢].

في هذه الآيات توجيه حميد، ومنهج دعوة قويم.

فإن الداعي لا يخلو من مناوئين لدعوته. وأولئك المناوئون يكون لهم أنصار مؤيّدون لهم قد غفلوا عن معرفة حقائق الأمور، وملابساتها. فهم يأتمرون بأوامر زعمائهم، ويقضون بقضائهم. فإن أخذ الداعية بكل سيئة تصدر عنهم، وأراد مقابلة السيئة بالسيئة أكفهرَّ وجه دعوته، وزين الشيطان حينئذٍ للطرفين وسائل الانتقام، والفتك بالآخر.

فيتضخم بذلك مجال الشرِّ، ويتّسع، ويضيق بالمقابل مجال الخير حتّى الاختناق

ومحصّل هذا: خوف، وتشرد، وقتل، وفرقة.

ومنهج الإسلام، ومبادئه السامية: الإصلاح، والوئام، وإخراج النّاس من الظلمات إلى النور. وتحقيق ذلك يتطلب الصبر والأناة، والموعظة الحسنة، والصفح عن المسيء بجهالة. ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتّى إذا اجتمع الصفح والإحسان، وبذل الاستطاعة فيه، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه قضية قوله تعالى: " بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "

والمداراة محثوث عليها ما لم تُؤد إلى ثلم دينٍ وإزراء بمروءة.

والحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة الّتي هي أحسن من أختها

(١) الكشاف للزمخشري ٣٤٩/٢ .

(٢) سورة فصلت الآيات: ٣٣-٣٥.

إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة الّتي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك:

رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة أن تعفو عنه. والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك.

مثل: أن يذمّك فتمدحه، ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه. فإنّك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك.

وعن ابن عباس " بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. [١]

ونظير آية فصلت سالفة الذكر قوله تعالى:

" خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "[٢]

وقوله تعالى:

"ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ "[٣]

يقول ابن كثير رحمه الله:

لكن الذي ذكر في الأعراف أخف على النفس مما ذكر في سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان في هذه الحال، فتنفعل له وتستعصي على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا

(١) تفسير ابن كثير – سورة فصلت.

(٢) سورة الأعراف الآيتان: ١٩٩-٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون الآيات: ٩٦-٩٨.

بضمير الفصل والتعريف باللام فقال:

" فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(١)

ومن مدلولات المداراة في القرآن الكريم قوله تعالى " وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً "(٢)

ومن الملاحظ أن كل هذه الآيات التي دلت على المداراة إنما كانت في مرحلة الاستضعاف في العهد المكي،

" والهجر في لغة العرب هو الترك هذا شيء يعرفه الخاص والعام؛ والجميل هو الأنيق المحب، غير المؤذي، الأنيق المحب غير المؤذي؛ واضح أن الجملة (واهجرهم هجراً جميلاً) حوت معنيين يكادان في الظاهر أن يتناصرا وأن يتدافعا فكيف يكون الترك جميلاً ومحبباً إلى الأنفس وغير مؤذ؟ كيف يكون.. هنا موضع الإعجاز في الأداء الرباني في الكلام الإلهي بهذا اللفظ الوجيز أوجز الله جل وعلا أرفع نماذج السلوك التي تحقق الانسجام والتأثير مع المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، في الوقت الذي تستند فيه قضية الحقيقة دون أن تتلوث بأوشاب هذا المجتمع. كيف، الغفلة عن هذه المسألة سبب أحد أمرين في واقع السلوك الإسلامي:

الأمر الأول: هم الذين أخذوا الهجر بمعناه العام والأولى والبسيط وعندهم أنه لمجرد أن تسلم لله وجهك وتسير معه في الطريق الذي اختطه لك فعليك أن تقطع العلائق بينك وبين الآخرين ضربة لازب.

والأمر الثاني:

الذي تبلور في السلوك: الغفلة عن كل شيء والاندماج المطلق في المجتمع

---

(١) تفسير ابن كثير – سورة فصلت.

(٢) سورة المزمل الآية: ١٠.

وقبوله على ما فيه من خير ومن شر وكلا السلوكين خطأ،

الهجر الجميل يعني أن لا تلابس من حولك في ما يغضب الله تبارك وتعالى، وأن لا تعين من حولك على ما يغضب الله تبارك وتعالى، وأن لا تساعد هذا المجتمع في شيء يتنافى مع أهدافك ومع قضايا دعوتك التي تحملها، ولكن مع الحفاظ على الرابطة الإنسانية التي تشد الناس جميعاً بعضهم إلى بعض مسلمهم وكافرهم على سواء لأية غاية؟ هل إلى غاية المداهنة والمجاملة والمصانعة؟

لا.. سلوك المسلم أبعد ما يمكن عن هذه الرجرجة الموقوتة ولكن لإبقاء النافذة الوحيدة التي يمكن أن تنفذ منها إلى قلوب الناس وإلى عقول الناس وإلى مشاعر الناس أي الإبقاء على الوسيلة التي لا غيرها والتي يمكن أن تكون في مجتمعك بواسطتها عنصراً فعالاً ومؤثراً.

الهجر الجميل هو أن لا تعين غيرك ممن يخالفك في الاتجاه والمعتقد في شيء مما يغضب الله ولكن مع الإبقاء على علائق المودة وعلائق المحبة وعلائق التضامن القائم بين أعضاء المجتمع أن لا تلقى الناس بهذه النفسية المظلمة العابسة ولا تلقاهم بهذا القلب الأسود الذي يتنزّى حقداً ويأكله هذا الحقد من جميع جوانبه بل تتقدم لإصلاح هذا المجتمع بالقلب المغمور بالمودة والمحبة والرغبة في إيصال الخير إلى الناس وتحفظ كل العلائق التي يمكن حفظها دون مساس بجوهر رسالتك وأسس عقيدتك أن تكون مسلماً هذا لا يعني بتاتاً أن تكون سيئ الطبع شرس الخلق هذا شيء وذاك شيء آخر وهجرك للمخالفين مع إبدائهم للتسويف المستمر وأخذهم بهذا النهج غير الأخلاقي لا يعني كذلك تقطيع العلائق بينك وبينهم.

أرأيتم كيف كان سلوك النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالفين؟

جهر بالدعوة دون مداورة ودون لجلجة ودون خوف وعلناً وتحت وهج الشمس وإبقاء على كل العلاقات التي يمكن أن تبقى كان يغشى مجالس الناس، وكان يزور

الناس، وكان يلقاهم بالبشر، وكان يلقاهم بالمودة،

ذات يوم مر النبي صلى الله عليه وسلم طائفاً بالكعبة وهذا في أوليات الدعوة فلما مر تغامز القوم وسخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسمعوه قارص القول فأعرض فطاف فسمع مثل ذلك عدداً من المرات ثم التفت إليهم وقال:"يا معشر قريش تسمعون والله لقد جئتك بالذبح"

وأشار إلى حلقه فكان أشد الناس عداوة له صلى الله عليه وسلم، يحاول أن يرفأه بأحسن ما يجد من القول، قاموا إليه يهدئونه ويقولون له:

"يا محمد والله ما كنتَ جهولاً".[١]

كلمة واحدة: لقد جئتكم بالذبح ذلك أقصى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم فكانت غريبة غريبة هذه اللفظة القاسية من إنسان عُرف كلَّ حياته بأنه على غاية ما يمكن أن يكون الإنسان من السماحة والطيبة واللين فالنبي عليه الصلاة والسلام عنوان الهاجرين للمجتمع ولكن بالهجر الجميل والهجر الجميل هو أن تبدي ما عندك وأن تدعو إلى هذا الشيء الذي أنت مكلف بالدعوة إليه دون تحطيم كل علاقة بينك وبين الناس.

انظر إليها في ضوء القانون الأخلاقي تجد أن العنف والشراسة وبذاءة القول وسوء الطوية شيء يتنافى مع أوليات القانون الأخلاقي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لعائشة رضي الله عنها إثر كلام سمعته من بعض الناس.. يقول لها:"يا عائشة لو كان العنف رجلاً لكان رجل سوء".[٢]

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٣٣١/٧، رقم ٣٦٥٦١).و صحيح ابن حبان ٥٢٩/١٤ رقم:٦٥٦٩ وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ١٤٩/١.

(٢) الطبراني في الأوسط ١٠٦/١ رقم :٣٣١ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧٢/٢ رقم : ٥٣٧

فالنبي عليه الصلاة والسلام ما خُيرَ بين أمرين، وما وقف في مفترق طريقين إلا اختار أيسرهما وأرفقهما ما لم يكن فيه إثم أو مغضبة لله تبارك وتعالى فإن يكن ذلك كان أبعد الناس منه.[١]

هذا هو معنى الهجر الجميل أن لا تلابس المبطلين في باطلهم ولكن هذا لا يمنع من أن يبقى بينك وبينهم حبل الود موصولاً فلو أنك وضعت الأمر تحت قانون الحركة والسير لوجدت أن العنف والعنفوان يعطلان الحركة ويقضيان على السير من أول الطريق فالرجل الذي تلقاه وأنت غاضب وأنت مشمئز، وأنت تحمل له في صدرك الضغينة التي لا تنتهي لا يمكن أن تتفتح لك مغاليق قلبه بحال من الأحوال".[٢]

– وفي إطار المصلحة العامة يستشعر الدعاة المخلصون شعورًا قويًا بالمسئولية تجاه أمّتهم، وما يعنيها من الإخلاص والأمانة. يدفعهم إلى ذلك إيمان بالله واليوم الآخر. فيساير أحدهم عدوّه – وهو منه على حذر – ليحقق لأمّته ما يحفظ عليها أمنها، وسلامتها، وكرامتها، دون المساس بأصل المعتقد وجوهره. ظهر شيء من هذا في وثيقة صلح الحديبية الّتي كُتبت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي مكّة، حين رفض مندوبهم سهيل بن

عمرو أن يُكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، وطلب أن يكتب بدلها باسمك اللهم، ووافقه الرسول صلى الله عليه وسلم على ما طلب.

واعترض سهيل على الكاتب قوله: " هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله قائلاً: والله لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت. ولكن اكتب: محمد بن عبد

---

(١) اقتباس من حديث البخاري عن عائشة في كتاب الحدود باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله٢٤٩١/٦ رقم :٦٤٠٤ .

(٢) نظرات في سورة المزمل للعلامة محمود مشوّح من مجلة البيان العدد ٦٥ ص ٥٢ .

الله. فوافقه الرسول صلى الله عليه وسلم على طلبه.

وطلب سهيل أن يُنَصَّ في الوثيقة على ما يلي:

لا يأتيك منّا رجل – وإن كان على دينك – إلاّ رددته إلينا. فوافقه الرسول صلى الله عليه وسلم على طلبه[١].

قال الخطابي:

في ذلك باب من العلم فيما يجب من استعمال الرفق في الأمور، ومداراة النّاس فيما لا يلحق دين المسلم به ضرر، ولا يبطل معه لله سبحانه حقّ.

وذلك أن معنى: باسمك اللهم، هو معنى: بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كان فيها زيادة ثناء.

وكذلك المعنى في تركه أن يكتب: محمد رسول الله واقتصاره على أن يكتب: محمد بن عبد الله.

لأنّ انتسابه إلى أبيه عبد الله لا ينفي نبوته، ولا يسقط رسالته.

وفي إجابته صلى الله عليه وسلم إياهم إلى أن يرد إلى الكفار من جاءه منهم مسلمًا، دليل على جواز أن يقرَّ الإمام – فيما يصالح عليه العدو – ببعض ما فيه الضَّيم على أهل الدين، إذا كان يرجو لذلك فيما يستقبله عاقبة حميدة، سيما إذا وافق ذلك زمان ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار، وخوفهم الغلبة منهم[٢].

ومما يسترعي الانتباه أن الذي قام بكتابة صلح الحديبية هو علي رضي الله عنه، ولما طلب النبي صلى الله عليه وسلم أن يمحو كلمة رسول الله تلكأ علي في محوها، ورأى أنه ليس من السهل عليه فعل هذا، وكان على في هذا الوقت في

(١) البخاري في كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان فلان بن فلان ٢/٩٥٩ رقم: ٢٥٥١ عن البراء بن عازب رضي الله عنه. .

(٢) معالم السنن للخطابي ٣/٢٠٣.

زهرة شبابه، وعنفوان قوته، لم تصقله التجارب – إن صح التعبير – فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد "[١]

وهذا من أمارات نبوته صلى الله عليه وسلم حيث تم هذا في خلافة علي رضي الله عنه يوم التحكيم فأراد أن يكتب لفظ " أمير المؤمنين " فامتنع معاوية رضي الله عنه وقال مقولة سهيل بن عمرو وبالتالي فقد تنازل علي عن حقه حقنا للدماء وجمعا لشمل الأمة،

أقول.. وهنا يظهر الفارق بين التفكير في مرحلة الشباب، ومرحلة النضج الفكري حينما يتقدم السن، وتزداد الخبرات، وهو ما يجب أن يتنبه إليه الدعاة المبتدئون.

ومن صور المداراة أيضا:

– إذا تَعرَّض المؤمن إلى ما يهدد وجوده على الأرض بسبب معتقده، ووقع في قبضة عدوّه الّذي ساومه بين الكفر أو الاستئصال – وهو قادر – فإنّ المداراة من المؤمن لمثل هذا الطاغية، في مثل هذا الموقف لا تطعن في صحّة إيمانه... ذكر أبو عبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر قال:

أخذ المشركون عمّار بن ياسر، فلم يَدَعُوه حتَّى سبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذَكَرَ آلهتهم بخير، ثمَّ تركوه.

فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما وراءك ؟ " قال: شرٌّ يا رسول الله، والله ما تُرِكتُ حَتَّى نِلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير.

قال: " فكيف تجد قلبك ؟ ".

قال: أجده مطمئنّا بالإيمان.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٤/٢١٢.

قال: " فإن عادوا فعُدْ "[١]

وشروط الإكراه أربعة:

١ – أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

٢ – أن يغلب على ظنّه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣ – أن يكون ما هدّده به فوريًا.

٤ – أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره، كمن أكره على الزنا فأولج، وأمكنه أن ينزع ويقول: أنزلت، فيتمادى حتّى ينزل.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور ويُستَثنَى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حقّ[٢].

ولعل ذلك يندرج تحت قوله تعالى: " لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ "[٣]

قال الإمام النسفي رحمه الله:

" لا يوالي المسلم الكافر. والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم في الإيمان {إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} إلاّ أن تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتقاؤه، أي: إلاّ أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك، ومالك فحينئذٍ يجوز لك إظهار

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٧/٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبيّ. وانظر تفسير الطبري (١٢٢/١٤)، وتفسير القرطبي (١٨٠/١٠).

(٢) فتح الباري لابن حجر ٣١١/١٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ٢٨.

الموالاة، وإبطان المعاداة[١].

وروى الطبري عن ابن عبّاس قوله:

" نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفّار أو يتّخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلاّ أن يكون الكفّار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين[٢].

وفيما يتعلّق ببعض أمور العبادة التّي دارى الشارع فيها أحوال أصحابها لتأليف قلوبهم، ما رواه أبو سعيد الخدري قال:

جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ زَوْجِي صَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، وَيُفَطِّرُنِي إِذَا صُمْتُ، وَلا يُصَلِّي صَلاةَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ.

وَصَفْوَانُ عِنْدَهُ. فَسَأَلَهُ عَمَّا قَالَتْ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا قَوْلُهَا يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، فَإِنَّهَا تَقْرَأُ بِسُورَتَيْنِ، وَقَدْ نَهَيْتُهَا.

فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَوْ كَانَتْ سُورَةً وَاحِدَةً لَكَفَتِ النَّاسَ ".

وَأَمَّا قَوْلُهَا يُفَطِّرُنِي، فَإِنَّهَا تَنْطَلِقُ فَتَصُومُ، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلا أَصْبِرُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ: " لا تَصُومُ امْرَأَةٌ إِلا بِإِذْنِ زَوْجِهَا ".

وَأَمَّا قَوْلُهَا إِنِّي لا أُصَلِّي حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ عُرِفَ لَنَا ذَاكَ، لا نَكَادُ نَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ.

قَالَ صلى الله عليه وسلم: " فَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَصَلِّ "[٣].

(١) انظر تفسير النسفي – سورة آل عمران – الآية: ٢٨.

(٢) انظر تفسير الطبري – تفسير سورة آل عمران آية: ٢٨.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصيام، باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها. صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٦/٢)، رقم (٢١٤٧).

معروف أنّ لكلّ صلاة وقتين: وقتًا تبدأ فيه لا تصح قبله. ووقتًا تنتهي فيه لا تجوز بعده إلاّ بعذر، وتكون قضاءً.

فالذي ينام عن صلاة الفجر حتّى تطلع الشمس قد فاته وقتها الأصلي، فإن كان فعله هذا بدون تفريط منه، وأمرًا طارئًا، وله عذر، كفّر عن فعلته بأدائها حين يستيقظ مباشرة. لقوله صلى الله عليه وسلم: " إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:" وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرَى" [سورة طه من الآية: ١٤] (١).

وحجّة صفوان في تأخيره لصلاة الفجر حتّى تطلع الشمس أنها عادة اعتادها هو وقومه، مما يدل على أن أمر تأخير صلاة الفجر قد تكرّر منه وربما ظنّ وأهل بيته أنّهم مرغمون بحكم العادة على فعل ذلك.

يقول الخطابي:

وقوله صلى الله عليه وسلم: " فإذا استيقظت فَصَلِّ " ثمّ تَرْكُه التعنيف له في ذلك، أمر عجيب من لطف الله سبحانه بعباده، ومن لطف نبيّه، ورفقه بأمّته.

ويشبه أن يكون ذلك منه على معنى مَلَكَة الطبع، واستيلاء العادة، فصار كالشيء المعجوز عنه. وكان صاحبه في ذلك بمنزلة من يُغمى عليه، فعُذر فيه، ولم يُؤَنب عليه.

ويحتمل أن يكون ذلك إنما كان يصيبه في بعض الأوقات دون بعض، وذلك إذا لم يكن بحضرته من يوقظه، ويبعثه من المنام، فيتمادى به النوم حتّى تطلع الشمس دون أن يكون ذلك منه في عامة الأوقات. فإنّه قد يبعد أن يبقى الإنسان على هذا

(١) مسلم في كتاب المساجد ـــ باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها عن أنس بن مالك، حديث رقم (٣١٦).

في دائم الأوقات وليس بحضرته أحد يُصلح هذا القدر من شأنه، ولا يراعي مثل هذا من حاله.

ولا يجوز أن يُظن به الامتناع من الصلاة في وقتها. ذلك مع زوال العذر بوقوع التنبيه، والإيقاظ ممن يحضره، ويشاهده(١).

وإذا نظرنا إلى المسألة من منظور المداراة فإنّا نصنّفها في دائرة الملاينة، والرفق، والمسايرة من العالم للمتعلّم. لإعادة النظر فيما يأتي به المتعلّم من أمور في العبادة تخالف قواعدها، جهلاً من الفاعل أو تقصيرًا. وحرصًا من العالم على تعليمه إياها ونصحه بالتي هي أحسن، متدرجًا معه من صغار المسائل إلى كبارها حتّى لا ينفر.

وفي موقف آخر من مواقف الشارع الحكيم ما يوافق أسلوب الدعوة بالتي هي أحسن، بالرفق، واللين، مع المؤلفة قلوبهم، ما رواه النسائي وغيره عن حكيم بن حزام قال: " بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أَخِرَّ إلاّ قائمًا "(٢).

قيل: معناه: أن لا يكون سجوده في الصلاة إلاّ خرورًا من قيامه. أي: لا يركع؟!!.

والركوع في الصلاة من أركانها !؟.

وسقوط شيء من الأركان في الصلاة يبطلها !؟.

والصلاة الباطلة لا تجزيء صاحبها !!؟.

إنّ معالجة الداعية الحكيم أمر المؤلفة قلوبهم تغلب عليه الدراية، وبعد النظر، والصبر، والروية.

(١) معالم السنن للخطابي ٨٢٨/٢ .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التطبيق، باب كيف يخر للسجود، صحح إسناده الألباني. صحيح سنن النسائي ٢٣٤/١ .

فإنّ الإيمان بعد الكفر مباشرة لا يسلم صاحبه من التردد بين المضي والإحجام، والشك واليقين.

والكافر مادي الأفكار، يأخذ بحساب الربح والخسارة عند كل ما يخصه من أمور الحياة، فيقدم هذا، ويؤخر هذا، فإذا ما وعد بما لم يره من ثواب أو عقاب في عالم الغيب – إن هو أحسن أو أساء – أخذ الأمر مأخذ الاحتمال، فهو بين المتطلع إلى الفوز والنجاح، والنادم على ضياع فرصة اللذات، والشهوات.

ولكن يبقى عامل الخوف في نفسه من المجهول.

ويرى ما يتقلّب فيه الإنسان من صحّة وعافية، ثمّ ما يعقب ذلك من موت، وفناء، حقيقة لا مراء فيها.

فالخوف غريزة في المخلوق تدفعه أو تمنعه من فعل ما يريد أو التصرف حيال ما يشعر خطره على نفسه أو ماله أو أهله. [1]

فمن استطاع من الدعاة أن يستغل آثار هذه الغريزة عند المسيء أو المنحرف، أو الضّال. ويوقظ في أنفسهم الشعور بخطورة أفعالهم، ومغبّة أعمالهم، ثمّ يبيّن لهم محاسن الدين، وما وعد به أتباعه المهتدين. فإنّ النجاح حليفه إن شاء الله.

فالذي اشترط عند بيعته ألاّ يخرّ إلاّ قائمًا، علم الرسول صلى الله عليه وسلم من لسان حاله أنه بعد أن يدخل في الإسلام، ويتعلّم من أمور الدين ما يفتح الله به عليه فسيعلم أن الركوع ركن في الصلاة، وأن تركه متعمدًا أو ناسيًا يبطلها، وأن الصلاة الباطلة لا تفيد صاحبها، وهي عامود الدين.

وهذا الموقف يشبه موقف وفد ثقيف عندما اشترطوا على رسول الله صلى الله

(١) المُدَارَاةُ وأثرها في العلاقات العامة بين الناس د. مُحَمَّدِ بن سَعْدِ بن عَبْدِ الرَّحْمَن آل سعود مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – العدد ١١٤ – ٤٤ / ٩٤.

عليه وسلم أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " سيصّدقون، ويجاهدون إذا أسلموا "[1].

وقد يجد الداعية نفسه أمام موقف يرتكب فيه أحدهم معصية، لا يقدر على دفعها في حينها لتعطل لغة الحوار بين الطرفين، فالآثم في حالة من اللاوعي لا تجعله يدرك حقيقة ما يقول، ولا يقدر أن يميّز بين إنسان وآخر في المعاملة. لتأثر عقله بما تعاطاه من مسكر أو مخدر.

والداعية في حالة أدرك معها حقيقة صاحبه، فتراجع في نفسه عن صياغة ألفاظ النصيحة، أو التنديد بما يراه، فترك المكان، تجنبًا لأي نوع من المهاترات أو المناوشات ليحفظ قدره، وهيبته، ويتجنب الحماقة في الفعل أو القول.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

كَانَتْ لِي شَارِفٌ[2] مِنْ نَصِيبِي مِنَ الْمَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَعْطَانِي شَارِفًا مِنَ الْخُمُسِ. فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَاعَدْتُ رَجُلاً صَوَّاغًا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعِي فَنَأْتِيَ بِإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ الصَّوَّاغِينَ، وَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي.

فَبَيْنَا أَنَا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعًا مِنَ الأَقْتَابِ[3]، وَالْغَرَائِرِ[4]، وَالْحِبَالِ، وَشَارِفَيَّ مُنَاخَتَانِ إِلَى جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ. أقبلت فَإِذَا أنا بِشَارِفَيَّ قَدْ أُجِبَّتْ أَسْنِمَتُهُمَا، وَبُقِرَتْ خَوَاصِرُهُمَا، وَأُخِذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن جابر ٣/٣٤١. قال الألباني: إسناد صحيح، رجاله كلّهم ثقات السلسلة الصحيحة ١٨٨٨ .

(٢) الناقة المسنة.

(٣) جمع قتب، وهو رحل صغير على قدر السّنام.

(٤) الغرائر واحدها غرارة: التي للتِّبن.

الْمَنْظَرِ، وقُلْتُ: مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟

فَقَالُوا: فَعَلَه حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَهُوَ فِي الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ[١] مِنَ الأَنْصَارِ.

غنّت قينة فقالت في غنائها:

أَلا يا حَمْزُ للشُرُفِ النِّواءِ[٢] وهُنَّ مُعقَّلاتٍ بالفِنَاءِ

ضَعِ السِّكِّينَ في اللَّبَّاتِ منها فضرِّجْهُنَّ حمزةُ بالدِّماءِ

وأَطْعِم مِن شَرائِحِهَا كَبابًا مُلَهْوَجَةً على وَهَجِ الصِّلاءِ

فأَنتَ أبا عُمارة المرجَّى لِكَشْفِ الضُرِّ عنَّا والبَلاءِ[٣]

فوثب إلى السيف فاجْتَبَّ أسنمتها، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما.

قال عليّ: فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

قال: فَعَرَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الَّذي أتيت له، فقال: " مَا لَكَ ؟! ".

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ. عَدَا حَمْزَةُ عَلَى نَاقَتَيَّ فَأَجتبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، وَهَا هُوَ ذَا فِي بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ.

فَدَعَا رسول الله صلى الله عليه وسلم بِرِدَائِه، ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي، فَاتَّبَعْتُ أثره أنَا وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ الَّذِي هو فيه، فَاسْتَأْذَنَ، فأُذن له، فَإِذَا هُمْ شَرْبٌ.

فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ. فَإِذَا حَمْزَةُ ثَمِلٌ مُحْمَرَّةٌ عَيْنَاهُ.

فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنَظَرَ إِلَى رُكْبَتِيه، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَهَلْ أَنْتُمْ إِلاَّ عَبِيدُ أَبِي ؟!!

---

(١) الشَّرْب بالفتح جمع شارب .

(٢) النواء: السمان.

(٣) الشعر لعبد الله بن السائب المخزومي. انظر فتح الباري لابن حجر ٢٠٠/٦ .

فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَدْ ثَمِلَ، فَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَى، فخرج، وَخَرَجْنَا. وذلك قبل تحريم الخمر[١].

والقهقرى: المشي إلى الخلف

قال ابن حجر: " وكأنّه فعل ذلك خشية أن يزداد عبث حمزة في حال سكره، فينتقل من القول إلى الفعل، فأراد أن يكون ما يقع من حمزة بمرأى منه ليدفعه إن وقع منه شيء[٢].

وقال الخطابي:

إنّ هذا إنما كان من حمزة قبل تحريم الخمر.

لأنّ حمزة قُتل يوم أُحُدٍ، وكان تحريم الخمر بعد غزوة أُحُد، فكان معذورًا في قوله، غير مؤاخذ به. وكان الحرج عنه زائلاً إذ كان سببه الَّذي دعاه إليه مباحًا، كالنائم، والمغمَى عليه، يجري على لسانه الطلاق، والقذف، فلا يُؤاخذ بهما[٣].

وهكذا فإنّ العاقل لا ينبغي له أن يخاطب السكران في حال سكره، ولا أن يقيم عليه الحد – إن كان ممن يملك ذلك – إلاّ بعد أن يفيق من سكره، حتَّى يكون وقع الجَلْد عليه محسوسًا عنده، ورادعًا له بعد ذلك.

وفي حياة المسلم من المواقف ما يستدعي المسايرة، والمجاملة وإن كان فيه ما ينغص عليه، ويظنه ظاهريًا خسارة لا ربحًا، ولكن الإيمان القوي بحكمة المشرّع وسلامة التشريع، يدفع صاحبه إلى الامتثال، ويسوغ له أمر الطاعة.

قال جابر بن عَتيك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" سَيَأْتِيكُمْ رُكَيْبٌ مُبْغَضُونَ، فَإِنْ جَاءُوكُمْ فَرَحِّبُوا بِهِمْ، وَخَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الخمس، باب فرض الخمس ١١٢٥/٣ رقم:٢٩٢٥ .

(٢) فتح الباري ٢٠١/٦.

(٣) معالم السنن ٣٩٠/٣ .

يَبْتَغُونَ، فَإِنْ عَدَلُوا فَلأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ ظَلَمُوا فَعَلَيْهَا. وَأَرْضُوهُمْ، فَإِنَّ تَمَامَ زَكَاتِكُمْ رِضَاهُمْ، وَلْيَدْعُوا لَكُمْ "[١].

قال الخطابي: رُكيب: تصغير ركب وهو جمع راكب.

وإنما عنى به السعاة إذا أقبلوا يطلبون صدقات الأموال.

فجعلهم مُبغضين لأنّ الغالب في نفوس أرباب الأموال بغضهم، والتكرّه لهم، لما جُبلت عليه القلوب من حبّ المال، وشدّة حلاوته في الصدر، إلاّ من عصمه الله ممن أخلص النيّة، واحتسب فيها الأجر، والمثوبة[٢]. فقد وجّه إلى مداراتهم، والتلطف إليهم لقيامهم بما أوجب الله من حقّ للفقير على الغني.

ويُشبه هذا قول أحد الصحابة وهو أبو الدرداء: إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ[٣].فهل يُعدّ هذا نفاقًا ؟

فقد ترد الشبهة فيه، ولكنه لا يصدق على من مثل أبي الدرداء رضي الله عنه، ومن يشبهه من المؤمنين.

فهو إذًا من المداراة وهي خفض الجناح، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ في القول والرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، والإنكار عليه بلطيف القول، والفعل، ولاسيما إذا اُحتيج إلى تألُّفه.

روت عائشة – رضي الله عنها – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنّ الله أمرني بمداراة النّاس كما أمرني بإقامة الفرائض."[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه من كتاب الزكاة، باب رضا المصدّق. قال الألباني في ضعيف سنن أبي داود (حديث رقم٣٤٥): ضعيف.

(٢) معالم السنن ٢/٢٤٥ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣.

(٤) سبق تخريجه ص ٢٣.

وقال سهل بن عبد الله التستري: فمن خالط الناس داراهم و لم يمارهم، فإن مداراتهم صدقة، ومداراة الوالد فريضة، ومداراة ذوي الأرحام سنة، ومداراة السلطان طاعة، ومداراة أهل البدع مداهنة، ومداراة الأحمق شرف، والشرف التغافل والسلامة للجميع،

ومن أوضحِ الأمثلة للمداراةِ تلك القصة المشهورة عن حذافة السهمي، حيثُ دَفع القتلُ عن أسارى المسلمين بتقبيلهِ رأس النصراني الكافر ملك الروم. [١]

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر القصة في أسد الغابة لابن الأثير الجزري ٢/٩٧.

المبحث الرابع

المأثور من الكلام في المداراة

يقول الإمام الثعالبي:

" قالوا:إذا عز أخوك فهن.، لاين إذا عزك من تخاشنه.، بالمداراة تساس الأمور.، بما تحت التنور يطلى التنور.، من حسنت مداراته كان في ذمة الحمد والسلامة.، ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح للماء الجاري.

ومن لم يلن للأمور عند التوائها تعرض لمكروه بلائها. واستِعْمالُ المُداراةِ يوجِبُ المُصافاةَ.

ما دمت حيّاً فدار الناس كلّهم... فإنّما أنت في دار المداراة "(١)

"وقال محمد بن السماك: من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم ماراهم، ورأس المداراة ترك المماراة. قيل: جلس أبو يوسف يعقوب بن السكيت يوماً مع المتوكل، وكان يؤدب أولاده، فجاءه المعتز والمؤيد ولدا المتوكل فقال له:

يا يعقوب أيما أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟

فقال: والله إن قنبراً خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك.

فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا به ذلك، فمات في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين.

ثم إن المتوكل أرسل لولده عشرة آلاف درهم، وقال: هذه دية والدك.

ومن العجب أنه كان قبل ذلك بيسير أنشد لولدي المتوكل وهو يعلمهما:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته بالقول تذهب رأسه... وعثرته بالرجل تبرا على مهل(١)

---

(١) التمثيل والمحاضرة للثعالبي ٨٧/١.

والداعية يستفيد من ذلك أن لا يعرض صفحته للسلطان الجائر، فيما لا يترتب عليه تقديم تنازلات في باب العقيدة،

ومعلوم أن كثيرا من النصح لا يصل إلى سمع السلطان، ولكن أي لون من ألوان الذم والقدح فإنه لا محالة يصل إليه، إما شخصا، وإما إلى أعوانه وعيونه، فيلحق الداعية من جراء ذلك ما الله به عليم.

ولذلك قالوا إن ترك المداراة طرف من الجنون.

" وقال الحجاج لابن القرية: من أعقل الناس؟ قال: من يحسن المداراة مع أهل زمانه." (٢)

" وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب

وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا "(٣)

" وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا { الِاقْتِصَادُ فِي النَّفَقَةِ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ، وَالتَّوَدُّدُ إلَى النَّاسِ نِصْفُ الْعَقْلِ، وَحُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ }.

وَقَالَ زُهَيْرٌ: وَمَنْ لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ وَالْمَنْسِمُ الرِّجْلُ اسْتِعَارَةٌ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ لِلدَّوَابِّ.

وَقَالَ آخَرُ:

أُدَارِيهِمُو مَا دُمْت حَيًّا بِدَارِهِمْ وَأُرْضِيهِمُو مَا دُمْت فِي أَرْضِهِمْ أَسْعَى

وَأَطْلُبُ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ مِنْهُمُو خَلَاصًا فَكَانُوا كَيْفَ قَلَبْتَهُمْ أَفْعَى

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي سَعِيدِ بْنِ شَرَفِ الْقَيْرَوَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ٩٩/٢.

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري ٣٠١/١.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٠٧/٢.

إِنْ تَرُمْ مِنْ أَحْجَارِهِمْ مَطْلَبًا بِثَأْرِهِمْ..يَا ثَاوِيًا فِي مَعْشَرٍ وَأَنْتَ فِي أَحْجَارِهِمْ
أَوْ تُكْوَ مِنْ شِرَارِهِمْ عَلَى يَدَيْ شِرَارِهِمْ.. فَمَا بَقِيت جَارَهُمْ فَفِي هَوَاهُمْ جَارِهِمْ
وَأَرْضِهِمْ فِي أَرْضِهِمْ وَدَارِهِمْ فِي دارهم "(١)

وقال ابن الجوزي يوصي ابنه:

" وكن حسَنَ المداراة للخلق، معَ شدة الاعتزال عنهم، فإن العزلة راحة من خُلَطاء السوء، ومُبقِيَةٌ للوقار، فإن الواعظ خاصةً ينبغي أن لا يُرى مُتَبَذِّلاً، ولا ماشيًا في سوقٍ ولا ضاحكًا، ليَحسُنَ الظنُ به، فيُنتَفَعُ بوعظه.

فإذا اضطررتَ إلى مخالطة الناس فخالطهم بالحِلمِ عنهم، فإنك إن كشفتَ عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم." (٢)

وجاء في رسائل الجاحظ:

" واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسب العلو والغلبة - أن في تركيبها بغض من استطال عليها. فاستدع محبة العامة بالتواضع، ومودة الأخلاء بالمؤانسة والاستشارة، والثقة والطمأنينة.

واعلم أن الذي تُعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك. فالصديق وجه معاملته المسالمة، والعدو وجه معاملته المداراة والمواربة، هما ضدان يتنافيان، يفسد هذا ما أصلح هذا، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه، إنْ قليلٌ فقليل، وإن كثيرٌ فكثير. فلا تسلم بالمواربة صداقةً، ولا تظفرْ بالعدو مع الاستسلام إليه. فضع الثقة موضعها، وأقم الحذر مقامه، وأسرع إلى التفهم بالثقة، ولا تبادر إلى التصديق، ولا سيَّما بالمحال من الأمور." (٣)

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ٣٢٠/١.

(٢) لفتة الكبد في نصيحة الولد للإمام ابن الجوزي ١٢/١.

(٣) الرسائل للجاحظ ٢٧/١ .

فليست المداراة بقادحة في الدين بل هي محمودة في بعض الأحوال مستحسنة على ما بينه العلماء إذ هي مقاربة في الكلام أم مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها أو صلاح الدين وإنما المذموم المداهنة وهي بذل الدين لمجرد الدنيا والمصانعة به لتحصيلها "(١)

وقيل: ثلثا التعايش مداراة الناس. وقال إبراهيم بن يسار: ما يسرني ترك المداراة ولي حمر النعم! قيل: لمَ؟ قال: لأن الأمر إذا غشيك فشخصيت له أدراك، وإذا تطأطأت له تخطاك.

وقيل: داروا الناس تسلموا: وقال معاوية: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوا أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها." (٢)

وقال محمد ابنه: من هجر المداراة قارنه المكروه، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة(٣)

وواضح ما في هذا الكلام من الدعوة إلى استخدام العقل الذي ميز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات، فإن الحيوان مثلا قد يذهب إلى ما فيه حتفه، وهو في ذلك جد معذور، فكيف إذا عرفت أن كثيرا من الحيوانات لا تقدم على ما فيه هلكتها، فحري بالإنسان العاقل فضلا عن الداعية إلى الله على بصيرة أن ينظر مواطن خطوه ولحظه ولفظه، حتى لا يورد نفسه موارد الهلكة، ويصبح وبالا على نفسه وأمته ودعوته، " وقيل من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل، حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه فإنه قيل: من

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - المقري التلمساني ١٢٣/٥ .

(٢) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ٢٧/١ ١ .

(٣) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ١٠٠/١ .

حرم مداراة الناس، فقد حرم التوفيق، فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق، وقالوا العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه.

وقال علي بن عبيدة العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله.

وقيل بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج "[١]

إذا تقرر هذا المعنى فهو الذي قد عناه الحسن البصري – رحمه الله – بقوله: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي كل العقل.

ومن الطريف قول أبي يوسف – رحمه الله – في تعداد من تجب مداراتهم فعد منهم: القاضي المتأول والمريض والمرأة والعالم ليقتبس من علمه.

وأكثر ما تجري المداراة في اتقاء الأشرار والمكاره.

وقد جاء في حكم لقمان: يا بني كذب من قال إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار. [٢]

وأسلوب المداراة مأذون فيه لأن الإنسان خلق للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا للانفرادية. والإنسان تعرض له عوارض نفسية وطبيعية من الحب والبغض والرضى والغضب والاستحسان والاستهجان، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشئون في كل وقت وعلى أي حال لاختل

(١) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي دار الكتب العلمية – بيروت ١/٣٥.

(٢) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري ١/٥٨٠.

الاجتماع ولم يثبت التعارف ولانقبضت الأيدي عن التعاون، فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به عما يحدث تقاطعا أو يدعو إلى تخاذل، وهذه هي المداراة التي نعني.

إذن فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار.. إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرا من الكتمان وأرجح وأصلح.

ومن لطيف المنقول في سير المتقدمين المقتدى بهم ما جاء في وصية سحنون لابنه محمد: وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس ويقول محمد بن أبي الفضل الهاشمي. قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته ؟ قال: أخبي نارا وأقدح ودا. [١]

فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد. وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة، ولا يقطع العضو المركب في الجسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الطب عن علاجه إلا بالبتر.

فالمداراة يقصد بها جمع الناس على الرضا والتآلف في حدود ما ينبغي أن يكون. وهي لا تمنع قضاء بالعدل ولا تحجب نصيحة بالرفق، وينبغي أن يعلم أن لذكاء الرجل وحكمته مدخلا عريضا في فقه المداراة وحسن استخدامها وطريقة الإفادة منها.

وقد يكون للتنوع في طبقات الناس تنوع في مداراتهم، فمداراة المنحرف عن الحق لسوء فهم أو خطأ في ظن، أكبر من مداراة من يحارب الحق والفضيلة إن

(١) انظر: كتاب مداراة النّاس، لابن أبي الدنيا، ص٣٥.

صادفك واقتضى الحال مداراته.

ومداراة من يرجى رشده وصلاحه أكبر من مداراة من شب متماديا في الانحراف ولؤم الطبع حتى يوشك أن ينقطع أملك في إصلاحه واستقامة أمره.

ومن كل ذلك تعرف أن المداراة مسلك كريم يتقنه الحكماء والأذكياء ولا يتعدى حدوده الفضلاء.

وقد تضطر الظروف الداعية أن يغض الطرف عن أشياء كانت بالأمس القريب لا تروق له، أو أن يأتي أمورا كان يتحفظ منها، ما لم يصل هذا إلى درجة الحرام

ولهذا قال أبو حاتم رضي الله عنه: " من التمس رضا جميع الناس التمس مالا يدرك ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بدا وإن دفعه الوقت الى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها واستقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثما فإن ذلك من المداراة وما أكثر من دارى فلم يسلم فكيف توجد السلامة لمن لا يداري ؟"(١)

وانظر إلى فهم العلماء لهذا الأسلوب – أعني أسلوب مداراة الناس –

عطاء بن أبي رباح عالم زمانه، وملء الأسماع والأبصار، قد طبقت شهرته الآفاق، " كان في مجلسه يوما فحدث رجل بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه، فغضب عطاء وقال: ما هذه الطباع إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به فأريه كأني لا أحسن منه شيئا "(٢)

فأين هذا من حال كثير من المنتسبين إلى ركب العلماء والدعاة وهو يتعاظم في نفسه كأنه وحيد عصره وفريد دهره، فلا يكاد يسمع إلا نفسه، ولا يكاد يرى إلا رأيه، فمتى استفاد هذا علما، ومتى يستفاد منه علم ؟ !

---

(١) روضة العقلاء لابن أبي حاتم ١/١٧٢، ١٧٣.

(٢) انظر: كتاب مداراة النّاس، لابن أبي الدنيا، ص٣٦ .

المبحث الخامس

من أنواع المداراة

أولا: التعريض:

من الأساليب التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية حينما يخاطب الجماهير: التلميح دون التصريح لأنه مطالب بامتثال قول الله تعالى " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا "(١)

ومن القول الحسن: الجنوح إلى التعريض والتلميح دون التصريح، فالتصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم والتبجح للمخالفة، وإذا أخذت بالتصريح وكررته وأكثرت منه فإنه يجعل الإنسان يقسو، وأحياناً يندفع ويجابه ويواجه ويكشر، ويهيج على الإصرار والعناد، أما التعريض فيستميل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، والبصائر اللماحة.

" قيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء أو يبلغه عنه أيقوله له؟ قال: هذا تبكيت ولكن يعرض." (٢)

وكل ذلك من أجل رفع الحرج عن النفوس، واستثارة داعي الخير فيها.

ولو نظرت في القرآن الكريم في معالجة الأخطاء التي وقع فيها الصحابة، أو التي وقع فيها المنافقون، فإن الله عز وجل حينما عاتب أهل أحد قال لهم:

" مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ "(٣) وكان بإمكانه أن يقول: فلان وفلان وفلان أهل دنيا فأخرجوهم، وهؤلاء يريدون الآخرة، لكنه قال: منكم، وما عرفوهم، وكان بالإمكان أن يحدد حتى

---

(١) سورة البقرة من الآية: ٨٣.

(٢) مفهوم الحكمة في الدعوة الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد الطبعة: الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢٢هـ ص ٣٠.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٢.

يخرجوا ولا يكونوا وسط البيئة، لكنه قال: " مِنكُمْ "

إن الهدف من هذا أن القرآن لم يصرح، بل حتى في المنافقين دائماً يقول: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي "[١] ويقول " وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ "[٢]

وكان بالإمكان أن يسميهم مع أن السيرة تسمي بعضهم، فمن قال: ائذن لي ولا تفتني هو فلان، لكن القرآن يعلمنا الأدب فيقول: منهم وفيهم،

وما قال: فلان، مع أنه قد سمى أشخاصاً معينين، فسمى فرعون و أبا لهب، وأعداءاً محدودين، لكن الأغلب أنه لم يسمِّ أشخاصاً بعينهم.

إذاً: الأصل التعريض، ولا يفضح إلا فاسق، ويحذر الناس منه لشدة فسقه؛ لأن التعريض يجعل خطا للرجعة، ويترك مجالا للأوبة، لكن إذا صرحت لإنسان يحاول أن يجد حججاً، ويجد في نفسه غلظة، ولا يمكن أن يستجيب لك أبداً، حتى لو صلح يجد في نفسه شيئاً، لأنك ذكرت اسمه.

إننا نريد النصيحة لا الفضيحة في الدعوة إلى الله

والمقصود هنا الإشارة إلى آداب النصيحة، باعتبارها مسلكاً من المسالك البارزة في الدعوة، وبخاصة إذا ما حاولنا البعد بالنصيحة عن أن تكون فضيحة، يوضح ذلك ابن القيم رحمه الله حيث يقول: " والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه فيتلطف في بذلها غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق المريض المشبع ! مرضا وهو يحتمل سوء

(١) سورة التوبة من الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة من الآية: ٥٧.

خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح، وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح فهو يقول له يا فاعل كذا وكذا يا مستحقا الذم والإهانة في صورة ناصح مشفق "[١]

فهذه دعوة إصلاح يجب أن يتمحض فيها الإخلاص لله، مع المحافظة على مشاعر المنصوح على نحو ما سبق في المسالك السابقة؛ لئلا ينقلب النضح مخاصمة وجدالاً وشراً ونزاعاً.

ويؤكد جانب الدقة في هذا الأمر: أن ذكر الإنسان بما يكره هو على أصل التحريم، وقد قيل لبعض السلف: أتحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

" لا تذكروا مساوئ أصحابي حتى أخرج إليهم وأنا سليم الصدر "[٢]

فالإنسان بشر، ولا يكاد يفرق بين النصيحة والتعيير سوى النية، والباعث، والحرص على الستر،

إن عدم التصريح بذكر اسم المخطئ، وعدم مواجهة الناس بالعتاب من الأساليب الدعوية الناجحة التي ينبغي للداعية العناية بها في دعوته إلى الله عزّ وجلّ وهو ما تجده واضحا جليا في هدي النبي صلى الله عليه وسلم ومنه قوله:

« إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة »[٣]

(١) الروح لابن القيم ص ٢٥٧.

(٢) سنن الترمذي ٥/٧١٠ قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) البخاري في كتاب الخمس باب قوله تعالى " فأن لله خمسه.. ٣/١١٣٥ رقم: ٢٩٥٠ عن خولة الأنصارية رضي الله عنها.

ويتخوضون من الخوض وهو المشي في الماء وتحريكه، والمراد هنا التخليط في المال وتحصيله من غير وجهه كيفما أمكن .

وقد كان صلى الله عليه وسلم قادرا أن يعين الشخص بعينه، ولكن هذا يؤدي إلى التنافر والحرج، وهذا بدوره قد يؤدي إلى ترك الميدان بالكلية، والمثل العربي يقول: إياك أعني واسمعي يا جارة، فساعة يذكر الداعية النصح على سبيل العموم يفطن من ألم بخلل، أو وقع منه تقصير أنه المعني بهذا التوجيه.

والنفوس البشرية ليست على قدم المساواة فما يصلح لشخص قد يضر آخر،

والداعية الأريب هو الذي يستطيع بإذن الله تعالى أولا ثم بمعايشته الناس أن يستبين من يتقبل النصح المباشر ويتحمله دون غضاضة، ممن لا يقوى علي ذلك، وهذا ثابت عندنا في صحيح السنة من كلام نبينا صلى الله عليه وسلم وهو ينصح حكيم بن حزام رضي الله عنه:

روي مسلم عن حكيم بن حزام – رضي الله عنه – أنه قال: سألت النبي – صلي الله عليه وسلم – فأعطاني ثمّ سألته فأعطاني ثمّ قال:

" إنّ هذا المال خَضِرة حُلوة، فمن أخذه بطيب نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلي "(١)

وكان من أثر ذلك أن أقسم حكيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يده لن تكون تحت يد أحد بعده حتى يلقاه على الحوض.

ثانيا من أنواع المداراة:

ومن المداراة في النصيحة أن تثني بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله؛

(١) مسلم – كتاب الزكاة – باب أن اليد العليا خير من اليد السفلي ٢٣٦/٥ رقم ١٧١٧.

فهذا داعية إلى الإحسان وترك الإساءة.أو الثناء على شخص غائب لخصال طيبة فيه لو أنه يستكملها بخصلة كذا، وهذا واضح من هدي النبي صلى الله عليه وسلم فقد أثنى على عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما يتمتع به من كريم الصفات معلقا هذا الثناء على أنه لو كان يقوم من الليل " نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي بالليل "(١)

إن معرفة أحوال الناس، ومراعاة عقولهم، ومعاملتهم بمقتضى ذلك الأمر دليل على جودة النظر في سياسة الأمور، وعلى حسن التصرف في تقدير وسائل الخير، وهو مما يعين على اكتساب الأخلاق الرفيعة، وعلى استبقاء المودة في قلوب الناس.

فالداعية العاقل الحكيم الحازم يُحْكِم هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة، فتراه يَزِنُ عقولَ من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس، ويشهد مجالسهم، وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقولٍ، وسرائرَ، وعواطفَ.

فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ومراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لا يُقْعِدُ حقاً، ولا يقيم باطلاً مظهرٌ من مظاهر الإنسانية المهذبة. (٢)

وكما أن هذا الأمر عائد إلى الألمعية وهي في أصلها موهبة إلهية فهو كذلك يأتي بالدربة، والممارسة، وتدبر سير أعاظم الرجال، والنظر في مجاري الحوادث باعتبار، فهذا مما يقوي هذه الخصلة، ويرفع من شأنها.

(١) البخاري في كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ١٣٦٧/٣ رقم: ٣٥٣٠ عن عبد الله بن عمر رض الله عنهما.

(٢) مع المعلمين د. محمد بن إبراهيم الحمد ص ١٦٥.

المبحث السادس

استخدام الداعية لأسلوب المداراة مع أهله

إنه ما من شك في أن نجاح الداعية يبدأ من البيت الذي يعيش فيه، ودعوته أول ما تكون فإنها تكون في هذا المحيط الأسري، ولذلك فإن من أوليات الأوامر الإلهية للنبي صلى الله عليه وسلم " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"(١)

وأول ما يعنى به الداعية بعد العمل على تقويم نفسه وإصلاحها هم الأهل والأقارب وهذا مستفاد من قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"(٢)

وحتى يستقيم للداعية مراده في إصلاح أهله لابد أن يتقن أسلوب المداراة، ويتمثل هذا على النحو التالي:

المداراة مع الوالدين:

في توجيه عام للناس يقول الله تعالى في حقّ الوالدين: " وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا "(٣)

فالإنسان في نموه يمر خلال حياته بمراحل مختلفة، تبدأ بالضعف، وتنتهي بالضعف. ففي المرحلة الأولى يتولى رعايته أبواه أو أحدهما. وفي المرحلة الأخيرة يتولى رعايته أبناؤه.

---

(١) سورة الشعراء الآية: ٢١٤.

(٢) سورة التحريم الآية: ٦.

(٣) سورة الإسراء الآيتان: ٢٣،٢٤.

غير أن مرحلة الضعف الأولى يعقبها قوة وعنفوان.

ومرحلة الضعف الثانية تتطور إلى ضعف، وضعف شديد يفقد معه الإنسان الكثير من نشاطه، وحيويته فيكون فيها محتاجًا لمن يساعده على قضاء كثير من شئونه في الحياة، فيبرز حينئذ دور الأبناء فيكون منهم البرّ بوالديهما الّذي يتمثل في طاعتهما في غير معصية الله، ورعايتهما، والصبر على ذلك.

وهنا يمكن للمداراة أن يكون لها دورٌ محوريٌّ في تلك العلاقة الظاهر في المجاملة، والأثرة، والتنازل، والملاينة، والرفق، والملاطفة، وحسن العشرة، والمداخلة في الأمور بسهولة، وبالرضى، والقبول من الفاعل.

ومن لم يوفق إلى فعل ذلك مع أبويه أو أحدهما فهو من المحرومين الأشقياء.

كما بيّن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: " رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا، أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ "(١).

وهكذا يمضي الشارع الحكيم في بيانه الرائع، المحكَم آخذًا بأيدي المؤمنين إلى ما فيه صلاحهم في الدارين.

ولعلك وقفت آنفا على أسلوب الخليل إبراهيم عليه السلام في دعوته أباه آزر، قال ابن القيم معلقاً على هذه القصة:

" فابتدأ خطابه بذكر أُبُوّتِه الدالة على توقيره، ولم يسمّه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: " لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا " ؟ ولم يقل: ما لا تعبد، ثم قال: " يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك "

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البرّ، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنّة ٥/٨ رقم: ٦٦٧٤ عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه.

فلم يقل: إنك جاهل لا علم عندك بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال:" جاءني من العلم ما لم يأتك "

ثم قال: " يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه.

وقال: " يَمَسَّكَ " فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نَكَّرَ العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل الجبار، ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا "[١]

وهذا الأسلوب الراقي مما يحتم على الدعاة أن يتنبهوا له حتى لا يقعوا في الخطأ والزلل مع أولى الناس بالعطف والاحترام والتقدير.

وقد جاء عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ:

" مَنْ عَصَى أَمْرَ وَالِدَيْهِ لَمْ يَرَ السُّرُورَ مِنْ وَلَدِهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ فِي الْأُمُورِ لَمْ يَنَلْ حَاجَتَهُ، وَمَنْ لَمْ يُدَارِ أَهْلَهُ ذَهَبَتْ لَذَّةُ عَيْشِهِ "[٢]

المداراة مع الزوجة:

الزوجة هي السكن الذي يأوي إليه الداعية آخر النهار بعد جهد طويل، وعناء مضني، وهي الملاذ بعد الله تعالى عندها يضع الداعية همومه وآلامه، ويبثها شكواه وأحزانه، فيجد عندها الراحة والرحمة، والطمأنينة والمودة.. هذه هي الزوجة، أو هكذا يجب أن تكون..

وقدوتها في ذلك أمها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها التي كانت خير معين بعد الله للرسول صلى الله عليه وسلم وأشهر مواقفها في بدء الدعوة وابتداء نزول الوحي حيث جعلت تهدئ من روع النبي صلى الله عليه وسلم متخذة من كريم

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٣/٦٥٣.

(٢) روضة العقلاء لابن أبي حاتم ١/ ١٧٣.

صفاته دليلا على عدم تخلي الله عنه، وهي بعد ما عرفت شريعة ولا وحيا، وإنما هي الفطرة السليمة والعقل الراجح التي امتازت به حتى استحقت وصف النبي صلى الله عليه وسلم لها بقوله: " حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد و آسية امرأة فرعون "[١]

ولكن مما يجب أن يعلم أن ليس كل النساء خديجة، وإنما يحتجن إلى شيء من الصبر مع الرفق واللين مضافا إلى ذلك شيء من المداراة وحسن الحيلة، حتى تستقيم الأمور، ويحصل الاندماج..

وفي هدي النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجاته بالمدينة المنورة أمهات المؤمنين خير أسوة لنا في ما نقول:

قالت عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها –: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا، فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ.

قَالَ: " لاَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ لا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا "[٢]. و المغافير: صمغ حلو له رائحة كريهة.

وهذا الفعل من النبي صلى الله عليه وسلم كان اجتهادًا منه، حَتَّى إن ربّه جلّ وعلا عاتبه في ذلك في قوله تعالى: " يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "[٣]

وهناك رواية أخرى للحديث تقول بأنه صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه

(١) سنن الترمذي ٥/٧٠٣ رقم: ٣٨٧٨ عن أبي هريرة. وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري في كتاب الطلاق باب لم تُحرم ما أحلّ الله لك ٥/٢٠١٦ رقم ٤٩٦٦.

(٣) سورة التحريم الآية: ١.

جاريته مارية إرضاءً لحفصة عندما اختلى بها في ليلتها وفي غرفتها[١].

والرسول صلى الله عليه وسلم من منطلق بشريته، وإنسانيته السوية يقع له مع أهل بيته من الخلافات، والمنازعات ما يمكن أن يقع بين أي ربّ أسرة مع أسرته.

وربما نغّص عليه ذلك النزاع، وأغضبه، ودفعه إلى اعتزال نسائه كلهن مدّة شهر من الزمان[٢].

ولكنّه في كلّ الأحوال يبقى ذلك الإنسان الكريم، ذا الخلق العظيم. فلا يظلم، ولا يجور، ولا يقول إلا الحق.

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على إرضاء أزواجه وفق مفهوم ما شُرِع لهن على أزواجهن من حقوق، يأتي في مقدمتها حسن المعاشرة. بالتلطف إليهن، والعدل والمساواة بينهن، وتجنب ما يكدر عليهن صفو حياتهن.

وذلك ليشرّع للنّاس ما يتّبعونه من آداب، وأخلاق فيما بينهم. فتحريمه العسل كان لإرضاء من أثّر في نفسها تأخره عند جارتها وقتًا أطول مما يمكثه عند الأخريات. وحلْفه عليها ألاّ تخبر أحدًا كان مراعاة لشعور زوجاته الأخريات اللاتي لم يطّلعن على الخبر أساسًا.

فإذا نظرنا إلى نوع الفعل الّذي وقع منه صلى الله عليه وسلم وجدناه فعلاً لا تدخله شبهة التحريم، ولا حتّى الكراهة، فدلّ على أنه كان تنازلاً منه عن شهوة نفس في لذّة طعام يفضّله، وآثر عليه مرضاة أزواجه، ووئام أسرته.

ثمّ إن قول الرجل: هذا حرامٌ عليَّ. لا يُحرم شيئًا، ويكون يمينًا توجب الكفّارة عند بعضهم. وهذا يؤيده قول الله تعالى بعد ذلك: " قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ

---

(١) أخرجها النّسائي في كتاب عِشْرة النساء، باب الغَيْرة عن أنس. وقال الألباني في صحيح سنن النّسائي: (٣/٨٣١)، رقم (٣٦٩٥): صحيح الإسناد.

(٢) البخاري في كتاب النكاح باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٥/١٩٩١ رقم: ٤٨٩٥ .

وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "[١]

وهذا النوع من المداراة يقع من الحكيم من النّاس، عند معاملته من هم دونه في المسئولية والقدرة على تحمّل أعباء الحياة، كالزوجات، والأبناء.

وعن العلاقة بين الرّجل والمرأة وخاصة الزوجان، نجد من السنّة النبوية ما يرشد، ويُعين على تفهم طبيعتها، ويحقّق لها قدرًا كبيرًا من الوئام.

ذلك أنّ نوعًا من المداراة يجب أن يتسلّح به أحد الطرفين مع الآخر.والزوج فضلا عن الداعية هو الأولى بهذا الأسلوب، وهو الأملك لهذا السلاح، لأنه أضبط لنفسه، وأقوى في كبح جماح نفسه، وأكظم لغيظه..

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ "[٢].

قال ابن حجر:

" يؤخذ منه أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة وفي الحديث الندب إلى المداراة لاستماله النفوس وتألف القلوب وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن وأن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه فكأنه قال الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها." [٣]

وفي بعض المواطن قد يضطر المسلم فيها إلى إخفاء الحقيقة من باب المداراة ،

---

(١) سورة التحريم الآية: ٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء.٥/١٩٨٧ رقم: ٤٨٨٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري ٩/٢٥٤.حديث رقم: ٤٨٨٩.

بمجاوزة الصدق طلبًا للسلامة، ودفعًا للضرر عن نفسه، أو أُمّتِه، أو الإبقاء على وئام أسرته.

وقد يُعدُّ ذلك كذبًا، ولكن الشارع رخص فيه على سبيل التورية والتعريض في ثلاثة مواطن:

الحرب، وحديث الرجل لامرأته، والإصلاح بين النّاس

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شيء مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ الْحَرْبُ وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا. (١)

– والمرأة الّتي لا ترضى إلا بالزيادة، ولا تقنع بما عندها والتي يتقنعها الشك في تصرفات زوجها وتعصف بها الغيرة ينعكس ذلك على تصرفاتها في بيتها مع زوجها، وعيالها: ضجر، وانفعال يؤديان في الغالب إلى تقصير في الواجبات الزوجية، فتنشأ بسبب ذلك الخلافات، وتتكدر النفوس. مما يهدد دعائم الأسرة بالانهيار، والفُرقة.

فدور الرجل في مثل هذه الحالة وغيرها يتمثل في مداراتها، واستمالتها بالحديث اللّين، والوعود الواسعة، واللطف معها، والإحسان إليها، حتّى إذا سكنت نفسها، واطمأنت عادت إلى إحسانها له، مبتهجة، راضية، ووجد هو في قربها السكينة، والمودة.

وجاء في الحديث: " ألا إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّكَ إِنْ أردت إِقَامَةَ الضِّلْعِ كسرتَها. فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا "(٢). وكسرها طلاقها.

---

(١) مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب تَحْرِيمِ الْكَذِبِ وَبَيَانِ مَا يُبَاحُ مِنْهُ ٢٨/٨ رقم: ٦٧٩٩ عن أم كلثوم بِنْت عُقْبَةَ بْنِ أَبِى مُعَيْطٍ رضي الله عنها.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطلاق، باب في مداراة النساء (٢٧٥/٥)، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في مداراة النساء، والحاكم في المستدرك (١٧٤/٤)، وقال: صحيح الإسناد على =

فوصف المرأة بالضِلع بجامع الاعوجاج فيهما. ففي الضِلع حقيقة، وفي المرأة مجاز. ووصف للضِلع في خَلْقَتِه، ووصف للمرأة في خُلُقِها.

قال ابن العربي:" والغالب من النساء قلّة الرضى، والصبر، فهن يَنْشُزْنَ على الرجال كثيرًا، ويكفرن العشير، فلذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم المنتزعات أنفسهن من النكاح منافقات(١)

والرسول عليه الصلاة والسلام أفضل من مشى على الأرض بقدميه، وأعبد من عبد لله عز وجل، ما نقص من هذه المكانة العظيمة شيئاً لما قال للصحابة يوماً:

" تقدموا، ثم قال لـــ عائشة: تعالي أسابقك، قالت: فسابقته فسبقته، قالت: فتركني حتى نسيت، وحملت اللحم –أي: صارت سمينة– وفي غزوة من الغزوات قال لهم: تقدموا، ثم قال لها: تعالي أسابقك، قالت: فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، ويقول: هذه بتلك "(٢) ، فهذا الفعل ما نقص من قدره صلى الله عليه وسلم؛ بل زاد فيه.

فأنت إذا أردت أن ترفع مستوى المرأة حتى تصير مثلك؛ فكأنك تريد رجلاً آخر في البيت، وهذا لا يصلح؛ لأنك لا تستطيع أن تعيش مع رجل آخر، والمرأة لو كان فيها جدية وطبيعتها مثل الرجال فلن تستطيع أن تعيش معها أبداً، فاللازم أنك تكون على مستوى المرأة، وتنزل من مكان الرجل إلى مستوى المرأة، وهذا النزول اسمه: المداراة، وهذه المرأة التي تمدح زوجها وتقول:

شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبيّ. كلّهم عن سمرة بن جندب. وفي المعنى انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء.

(١) عارضة الأحوذي (١٣٥/٣)، طبعة ١٤١٥ هـ. والحديث أخرَجه النَّسائي في كتاب الطلاق، باب ما جاء في الخلع عن أبي هُرَيْرَة يرفعه: " المنتزعات، والمختلعات هنّ المنافقات "، قال الألباني في صحيح سنن النَّسائي (٧٣٠/٢ – ٧٣١): صحيح.وانظر مسند الإمام أحمد (٤١٤/٢).

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٣٠٥/٥ رقم: ٨٩٤٥.وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٥٤/١ رقم:١٣١.

" زوجي إن دخل فهد إن خرج أسد "[١]

فوصفته بالغفلة؛ لأن الفهد موصوف بالغفلة وكثرة النوم.ثم أردفت تقول:

ولا تظنوا أنه مغفل في وسط الرجال؛ بل إذا خرج أسد أي: كالأسد، فوصفته بأنه يتغافل عما يكون في البيت، لكنه إذا خرج فهو رجل في وسط الرجال.

ومن صور المداراة مع الزوجة:

قال ابن أبي حاتم: " أنبأنا الحسن بن سفيان حدثنا إبراهيم الحوراني حدثنا أبو مسهر حدثنا سهل بن هاشم عن إبراهيم بن أدهم قال قال أبو الدرداء لأم الدرداء إذا غضبت فرضيني وإذا غضبت رضيتك فإذا لم نكن هكذا ما أسرع ما نفترق.

وقال أيضا: " حدثني الحسن بن سفيان حدثنا عبد الله بن أحمد ابن شبويه حدثنا الحسن بن واقع حدثنا ضمرة عن ابن شوذب قال:

كانت لرجل جارية فوطئها سرا فقال لأهله إن مريم – عليها السلام – كانت تغتسل في هذه الليلة فاغتسلوا فاغتسل هو واغتسل أهله.

قال ابن شوذب وكانت مريم تغتسلا في كل ليلة." [٢]

فأنت ترى الرجل وقد وقع في أمر تبغضه الزوجة، فلو علمت بحقيقة الأمر لانقلبت عليه وكدرت عليه عيشه، وحدث ما لا يحمد عقباه، فلم تبق إلا المداراة مخرجا من هذا المأزق، فلم يسع الرجل إلا استخدام هذا الأسلوب مع زوجته، إبقاء على حبال الود، وعونا على صفاء الحياة.

* * *

(١) جزء من حديث في البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل ٥/١٩٨٨ رقم: ٤٨٩٣ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لمحمد بن حبان البستي أبو حاتم ١/٧٠ .

المبحث السابع

محظورات في استخدام المداراة

والأصل فيما سنعرض له من كلام في هذا المبحث يقوم على التفريق بين مقام النهي في قوله تعالى:" فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ "[١]

وبين مقام الرخصة في قوله تعالى:" لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ "[٢] إنه التفريق بين مقام المداهنة المنهي عنها شرعاً، ومقام التألف، والمداراة المرخص به شرعاً، والدعاة في هذا الباب – باب المدارة والمداهنة– بين: إفراط وتفريط واعتدال.

فمنهم؛ من فتح باب المداهنة على مصراعيه، فباع الحق بثمن بخس، طلباً لرضى الناس، أو لمتاعٍ دنيوي زائل، فسقط في غضب الله، وأبطل عمله، فحُرم التوفيق، وخسر الأجر.

ومنهم؛ من فقد الفقه– فقه الدعوة إلى الله– وظن أن المداراة مداهنة، وأن كل تلطف، أو كلمة طيبة، أو خلق حسن مع العاصي أو المخالف، هو مداهنة، ويرى أن كل سكوت مؤقت عن الخطأ – بغية إصلاح ما هو أعظم، أو انتظار فرصة أفضل، أو التدرج مع المدعوين تمييع، ومداهنة

وهؤلاء؛ فقدوا الحكمة، وخالفوا الشرع، فغلظت قلوبهم، وساءت أخلاقهم، وقست عباراتهم مع الناس، فنفروا العباد، وأساءوا إلى الدين، وضيعوا كثيراً من المصالح، وجلبوا كثيراً من المفاسد عليهم، وعلى الدعوة، ولم يكتفوا بذلك، بل عابوا على

(١) سورة القلم الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة آل عمران من الآية: ٢٨.

غيرهم حكمتهم، واتهموهم بـ (المداهنة) والـ (التلون) لتلطف فعلوه، أو لكلام طيب مع العاصي أو المخالف أظهروه، أو لبيان حق لمصلحة شرعية أخروه، واحتجوا بعموم النهي عن ذي الوجهين، وبعموم الأمر بالصدع بالحق، متغافلين عما أمر الله به من الحكمة، وما كان من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه المواقف.. من الرفق والكلام الطيب.. وتأخير البيان لمصلحة جلية، وما شابه ذلك، وأنا أذكر هنا بعض المحظورات في باب المداراة:

أولاً: لا مداراة في مسائل الاعتقاد: وإلا تحول الأمر إلى مداهنة، إذ أن الغاية من كل ما نجاهد ونحيا لأجله هو الحفاظ على هذا المعتقد، وكل ما يبذل من جهد، على كافة الأصعدة إنما الهدف منه هذه العقيدة ومفرداتها

فكلمة التوحيد هي مناط النجاة، ولو انفرط عقد الجماعة، ولو ضاعت معالم الأمة بحيث لم يبق منها إلا أطياف من البشر متناثرين هنا وهناك، ولن تجد نصاً في الكتاب ولا السنة يشير إلى مجرد اجتماع الناس في صورة أمة، أو جماعة، أو دولة يحقق لهم النجاة بمنأى عن العقيدة؛ ولهذا يجب أن يستقر في أذهاننا أن مفردات العقيدة ثوابت راسخة لا يصح أن تكون مجال مداهنة، أو تنازل، مهما كانت الحجة والمبرر كالتذرع بالمحافظة على الجماعة، وعدم تشرذم الأمة، ونحو ذلك...

وخير شاهد على ذلك ما وقع للصحابة - رضوان الله عليهم - عندما هاجروا إلى الحبشة، وكانوا غرباء بعداء، وجاء عمرو بن العاص ومن معه يريدون أن يؤلبوا النجاشي عليهم، فجاء بهم النجاشي يسمع منهم، فأي شيء قالوا ؟ هل قالوا: نحن قلة قليلة.. دعونا نعطيهم من القول ما يريدون.. غيّروا وكونوا دبلوماسيين، وأعطوا صورة تنم عن الحضارة واعترفوا كما يقولون بالرأي الآخر.. أم ماذا قال جعفر رضي الله عنه ؟

لقد قالها كلمات فيها العزة، وفيها الدعوة والهداية، فكان من قوله رضي الله عنه: " كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لنعبد الله وحده سبحانه وتعالى "، ثم قال: " وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، ونهانا عن الفواحش.. " إلى آخر ما قال.[1]

ثم جاء عمرو بن العاص - الداهية المحنك - في اليوم التالي قال: لآتينهم بما يبيد خضراء هم، فجاء إلى النجاشي وقال: إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً - عيسى عندهم وقد دخل التحريف إلى ديانتهم أنه الله أو ابن الله وعند المسلمين غير ذلك - فجيء بهم ليقولوا ماذا عندهم في هذا؟

وهي قضية فاصلة: إن قالوا ما يخالف قد يكون وراء ذلك مهالك، فأي شيء قالوا عندما سئل جعفر عن ذلك ؟

قال: نقول فيه ما قاله نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، فقال النجاشي: ما عدا ما قلت عودي هذا، حتى نخرت البطارقة لموافقة النجاشي، قال: وإن نخرتم، وإن نخرتم."[2]

وانقشعت هذه الغمة عن الأصحاب الكرام رضي الله عنهم، وباء وفد المشركين بالخيبة والخسران،

والملاحظ في هذا الحدث الهام ما كان عليه هذا الوفد من الذكاء حيث علموا

---

(١) مسند أحمد ١٧٢/٣٧ رقم: ٢٢٤٩٨ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، وصححه الألباني في فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١١٥ دار القلم - دمشق. الطبعة: السابعة - ١٩٩٨تحقيق: تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

تأثير الهدايا في النفوس، فأعدوا مجموعة من الهدايا له ولوزرائه، ولقد أحسنوا إعداد الخطة، فوجهوا عضوي الوفد إلى الاتصال أولاً بالوزراء وتقديم الهدايا لهم، وشرح القضية أمامهم ليكسبوهم إلى صفهم فيما إذا بحث الوفد القضية مع النجاشي.

لقد اتفق وفد قريش ووزراء النجاشي على الخطة الأثيمة التي تقضي بتسليم المسلمين،

وهكذا كان وقوف النجاشي وحده وإصراره على منح المسلمين حرية الكلمة هو الذي أنقذ الله تعالى به أولئك الصحابة رضي الله عنهم، وأخيرًا خضع وزراء النجاشي لرأيه الذي يمثل العدالة والوفاء.

وإن من مظاهر السمو التربوي في هؤلاء الصحابة أنهم لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، هو أن يعرضوا الإسلام كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كائنًا في ذلك ما هو كائن، وإن هذا الاجتماع يعدُّ ثاني خطوة من خطوات النجاح بعد الشورى وكان عددهم بعد الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلا.

هذا وإن الذي أجمعوا عليه يعدُّ دليلاً على قوة توحيدهم واستسلامهم لله تعالى، حيث عزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم، ولم يجعلوا لآرائهم واجتهاداتهم مدخلاً في ذلك الأمر لوضوحه، حيث كان الأمر إما أن يَعرضوا الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، أو أن يسلكوا سبيل المداهنة فيعرضوا منه ما يوافق هوى ملك الحبشة ووزرائه، وفي هذا سلامتهم في ظاهر الأمر، لكنهم لقوة توحيدهم لم ينظروا إلى موضوع سلامتهم في الدنيا، وإنما نظروا إلى سلامتهم في الآخرة، فعزموا على عرض الإسلام كاملاً وعدم المداهنة.

وجاء في رواية أخرجها الحاكم والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا للنجاشي:" إنهم – يعني المسلمين – لا يسجدون لك، قال: فلما انتهينا إليه زَبَرَنا مَنْ عنده: اسجدوا للملك،

فقال جعفر: لا نسجد إلا لله، "[1]

وهذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على سلامة التوحيد، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه طريق المداراة، ولو أدى ذلك إلى المداهنة، ولكن المؤمنين حقًا لا يفعلون ذلك بل يمتثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل عليهم من أذى،

وكذلك فعل المؤمنون في الحبشة رضي الله عنهم، وقد سخَّر الله تعالى قلب النجاشي فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع وأمثاله من جعفر رضي الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام

إنه لابد من الدعوة إلى الإسلام بكل ما فيه من قوة وتميز وإن أنكره الناس في أول الأمر، فإن قوة إصرار دعاته على تطبيقه والاستعلان به مع مخالفة التيار العام لهم يدفع المخالفين والحيارى ومن خلت أذهانهم من أي دين إلى التفكير الجاد في دوافع هذا الإصرار القوي، وفي النهاية يهديهم التأمل والتفكير السليم إلى عظمة هذا الدين الذي يدفع معتنقيه إلى المجابهة والمغامرة بالأنفس والأموال.

وتأمل معي كلام الله تعالى إخبارا عن إنكار موسى عليه السلام واقعَ الشرك الذي تلبَّس به بنو إسرائيل:" قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي "[2]

---

(١) المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ٢/٣٣٨ رقم: ٣٢٠٨ وقال الإمام الذهبي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

(٢) سورة طه الآيات: ٩٢-٩٤.

فها هو نبي الله هارون عليه السلام يرجح كفة الاجتماع، ويحاول قدر الإمكان استيعاب بدعة الشرك التي جاء بها السامري.

ولربما عذر موسى عليه السلام لأخيه هارون عليه السلام اجتهاده، ولكنه لم يقره عليه البتة حيث انصرف للتو يطهر هذه الجماعة من رجز الشرك ولوثة العقيدة، ولكن تأمل:" قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا "(١)

فلم يراع موسى عليه السلام أمام تهديد أمن العقيدة أي شيء آخر فالسامري صاحب فكرة وأتباع يُخشى بمجابهته انفراط عقد الجماعة، ولكن إذا تعين ذلك لحفظ العقيدة؛ فلا ضير، والعجل له عُبّاده ومريديه وربما أدى تحريقه إلى انفراط عقد الجماعة ولكن لا ضير.

ألا فليعلم الداعية أن لو استلزم الأمر التضحية بكل سامري، وخسارة كل عابد عجل في مقابل تحقيق أمن العقيدة ألا فليكن، ألا ولبئس الجماعة التي تحتضن شاكلة السامري وأتباعه بل أي معنى يبقى للجماعة إذا كان مدار تأليف القلوب الإقرار بالشرك بالله، أو السكوت عليه على أقل تقدير.

ثانياً: المداراة مشروعة لدفع الضرر ودرء المفسدة فتقدر بقدرها:

وهذا من أبجديات فقه السياسة الشرعية، ولتعلم أن الضابط في مشروعية المداراة: غياب شوكة أهل الحق، وأن الضابط في حد المداراة ومداه: ما يندفع به

---

(١) سورة طه الآيات: ٩٥-٩٨.

الأذى والضرر عن جماعة المسلمين فحسب.

فتنبه لهذا فإنه دقيق جداً، وبالغفلة عنه ينجرف البعض في تيارات المداهنة والتمييع والملاطفة ليصبح حاله حال من غصَّ فكاد يختنق فشرعت له شربة خمر متعينة لتذهب غصته فإذا به يسترسل في زجاجة الخمر سادراً متمتعاً! والحاصل أنه لا يجوز أن يتحول الإذن بالمداراة المرتبط بالضرورة الملجئة إلى مجال تنازل عن شيء من الثوابت العقدية التي إنما فارق أهل البدعة أهلَ السنة بتركها.

ففرق بين أن تداري وتتألف قلوب فرقة ضالة، لها شوكة يُخشى أن يتضرر منها جماعة المسلمين، وبين أن نلغي هذه الأسس العقدية التي افترقنا عليها، ونعلن للناس أنه اختلاف بسيط لا يفسد للود قضية، وأن التقارب والتقريب بين الفريقين مشروع، بل مطلوب بحجة وحدة الصف.

وحسبك مثالاً واضحاً اليوم ما تزل به أقدام العديد من حملة العلم المنتسبين إلى السنة من الإعلان بمشروعية ومندوبية - بل ربما وجوب - التقريب مع أهل الرفض، ولا أعني بأهل الرفض عوامهم بل منظريهم وعلماءهم وسادتهم ممن يعلمون حقيقة الفساد العقدي الذي يُضلون الخلق به.

وقريب من هذا المجال من يتمادى مع منظري وكبراء العلمانية بحجة وحدة الصف الوطني، ثم يتخذ من مشروعية المداراة ذريعة لذلك.

وغفل هؤلاء، أو ما دروا أن هذه المداراة ما شُرعت إلا حيث تعينت طريقاً للحفاظ على سلامة أهل السنة باعتبارهم حملة منهج الحق لا باعتبار ذواتهم وأشخاصهم، فمهما أفضت المداراة إلى تمييع منهج الحق، أو تضييع شيء من ثوابته؛ لم تعد مشروعةً ألبتة.

وهذا كله يعود إلى الأصل القرآني فيما أبيح للضرورة حيث قال تعالى:

" فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(١)

" فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "(٢)

فمن تجاوز المدارة إلى المداهنة، فقد بغى، واعتدى.

فمبدأ المداراة يقوم في الجملة على ترك الاستعداء، وترك الإعلان بالعداوة والبغض في الله لأعيانهم، وذوي الشوكة منهم لا لمناهجهم وأصولهم التي لا تنقطع مجاهدتها بالبيان الأولى بالأولى، ولا يقوم أبداً على الاستخذاء، والاسترضاء لرءوس البدعة ودعاتها،

إن المداراة في حقيقتها أقرب إلى التحييد المؤقت لهذه الفئة حتى يُتفرغ لمن هو أعظم خطراً منها، وإن مشروعية المداراة والتألف مع هؤلاء يجب أن تقتصر على هذا التحييد ولا تتجاوزه إلى شيء من العلاقة الإيجابية، اللهم إلا ما دخل في جنس التعاون على البر والتقوى والمعروف مما لا شرط له كدفع صائل، ونصرة مظلوم، ونحو ذلك مما تتطلبه طبيعة المرحلة، وهذا وفق قاعدة:

" للمسلمين نفعه وعليه وزره "

ثالثاً: مداراة وتألُّف أهل البدع والافتراق ليست تقريراً لهم على بدعتهم وضلالاتهم: إن استحضار هذا الأصل يقي من الانجراف وراء أوهام التقريب التي قد تكون أوقات الفتنة مروجةً لها؛ ولذا نؤكد على ما سبق في الأصل السابق، وهو أن مداراة هؤلاء لا يُقصد منها سوى دفع الضرر الأكبر عن المسلمين وعنهم، ولا يراد بها تقريرهم على بدعتهم.

فالتألف والمداراة دفع لأعظم الضررين بالنسبة لكل من أهل الحق وأهل البدعة،

---

(١) سورة البقرة من الآية: ١٧٣.

(٢) سورة المائدة من الآية: ٣.

وإرجاء للتعامل الحاسم مع أهل البدعة إلى حين انطفاء نار الفتنة، وعودة الشوكة لأهل الحق.

رابعاً: " إن مداراة أهل البدعة زمن الفتنة لا يعطل جهادهم بالبيان: فزمن الفتنة أدعى لانحسار السنة، وافتتان الناس بباطل التأويلات، وزيف البدع والضلالات؛ فكان الواجب المرابطة على ثغور السنة بالعلم والبيان والمحاجة العلمية بالدليل، فيجب على أهل العلم وحملته أن يجتهدوا ويشمروا في بيان معالم الحق، والكلام في كل ما يشكل على الناس من أصول دينهم، لا سيما ما له علاقة بطبيعة الفتنة الحاصلة كأن يدهمهم العدو، أو يشغر الزمان عن إمام، ونحو ذلك."(١)

ولعل أصدق مثال على ذلك ما حدث من إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن الكريم، والتي تعرض من أجل الصدع بكلمة الحق لألوان من العذاب وقيل له في ذلك لو أنك قلت كلاما فيه مداراة أو تقية، ولكن الوقت لا يسمح بذلك فالمقام مقام ابتلاء واختبار، كما أنه مقام بيان لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة إليه، وابن حنبل عالم الأمة الذي تتطلع إلى فتواه الأسماع، وإلى محياه الأنظار، فإذا به يقول كلمته المشهورة فيما حدث به إِسْحَاقُ بْنُ حَنْبَلٍ عَمُّ أَحْمَدَ قال قلت: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَدْ أَعْذَرْت فِيمَا بَيْنَك وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ أَجَابَ أَصْحَابُكَ وَالْيَوْمَ بَقِيت فِي الْحَبْسِ وَالشَّرِّ،

فَقَالَ لِي يَا عَمِّ إِذَا أَجَابَ الْعَالِمُ تَقِيَّةً وَالْجَاهِلُ بِجَهْلٍ فَمَتَى يَتَبَيَّنُ الْحَقّ ؟

فَأَمْسَكْتُ عَنْهُ وَقَالَ ابْنُ الْمُنَادِي دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ دَاوُد الْحَدَّادُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَبْسَ قَبْلَ الضَّرْبِ فَقَالَ لَهُ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْك رِجَالٌ وَلَك

---

(١) منهج التعامل مع أهل البدعة في وقت الفتنة للدكتور/ وسيم فتح الله، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ١٢٧/٤ ط المملكة العربية السعودية ١٤١٣ هـ.

صِبْيَانٌ وَأَنْتَ مَعْذُورٌ كَأَنَّهُ يُسَهِّلُ عَلَيْهِ الإِجَابَةَ فَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِنْ كَانَ هَذَا عَقْلَكَ فَقَدْ اسْتَرَحْتَ.. "[١]

ولولا فضل الله عز وجل على هذه الأمة بأن قيض لها أمثال هؤلاء العلماء الدعاة المجاهدين الصابرين المحتسبين، لما استطاع الحق أن يستمر لمدة قرون طويلة غضا طريا، يشق طريقه في عباب الباطل، وبين أمواج الضلال.

ولكنه سبحانه متم نوره، وهو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

(١) شرح منظومة الإيمان للشيخ / عصام البشير المراكشي ١٣٤/١.

الخاتمة

بعد هذا التطواف بين نصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء حول ما جاء في أسلوب المداراة في الدعوة إلى الله تعالى أنتهي إلى هذه النتائج:

أولا: إن وقوف الدعاة على حقيقة المداراة يُسَهِّل لهم الانتفاع بما هو صالح، وطرح ما هو فاسد. فلا يقعون في الخلط بين المداراة وهي مشروعة، وبين المداهنة وهي محرمة.

ثانيا: لابد من تفعيل دور العلماء الثقات، في القيام بواجبهم، وفتح السبل لكلمتهم، والسماح بمرورها إعلامياً، وتسخير إمكانات الأمة لهذا الغرض.

لأنهم صمام الأمان لهذه الأمة، حتى لا ينجرف صغار المتعلمين في هوة الإفراط أو التفريط.

ثالثا: لا يجوز مطلقا المساومة على شيء من ثوابت الدين، بحجة المداراة، أو سيرا وراء دعاية كاذبة كاجتماع الصف، أو وحدة الأمة وغير ذلك.

رابعا: إن عواقب إهمال هذه القاعدة الرئيسة من قاموس الدعاة، جر عليهم وعلى أمتهم ودعوتهم شرا مستطيرا، فأما المداهنون فقد عملوا على ضياع دينهم، وفقدان ثقة الناس، وعدم مبالاتهم بهم، فضلاً عما ينتظرهم من حساب ربهم.

وأما الغلاة الجُفاة فقد جروا على الدعاة سوء السمعة، وتشويه الدين عند الجهلاء، ونفور الناس، ظناً منهم أن فعل هؤلاء الدعاة من الدين، فضلاً عما أحدثوه من تراجعات شديدة في سير الدعوة إلى الله.وما ترتب على ذلك من إهدار طاقات الشباب المسلم، بل في بعض الأحيان إهدار دمه، فمثلهم كمثل المنبت فلا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع[١]. ونعوذ بالله من الخذلان.

(١) اقتباس من حديث في سنن البيهقي الكبري ١٨/٣ وضعفه الألباني.

خامسا: إن مداراة الناس مطلوبة ولا تنقض الحقائق، والإنسان لا بد أن يكون حكيماً في تصرفاته، ولا شك أن الناس في هذا الزمان ابتعدوا عن الخير والحق، وضعف إيمانهم، وكثرت الانحرافات عندهم، فلو جاء إنسان يريد أن يحمل الناس على طريق لا ينحرف قيد أنملة، ربما لا يستفيد من الناس؛ بل ربما أنه ينفرهم.

فالمطلوب من الإنسان أن يحرص على تنمية نفسه وترقيتها، وفيما يتعلق بالناس يأتيهم بالأسلوب اللين الحكيم اللبق، وإذا كان مطلوباً المجادلة بالتي هي أحسن مع غير المسلم فمن باب أولى مع المسلم أن تلاينه، وتلاطفه، وتأتيه شيئاً فشيئاً... والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

***

ثبت بأهم مراجع البحث

القرآن الكريم جل من أنزله.

- أحكام القرآن لابن العربي – دار الفكر العربي تحقيق علي محمد البجاوي
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ط دار المنار
- أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي.
- أساس البلاغة للزمخشري.
- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية د/ أحمد الشايب.
- أعلام الحديث للخطابي ط حمص – سوريا ١٩٦٩ م.
- بدائع الفوائد لابن القيم ط٢ – مكتبة القاهرة ١٩٧٢.
- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير – ط الريان ط ١ – ١٩٩٦ م.
- التعريفات للجرجاني.
- تهذيب اللغة لابن فارس.
- دلائل النبوة للإمام الحافظ البيهقي.
- ربيع الأبرار للزمخشري.
- الروح لابن القيم.
- روضة العقلاء لابن أبي حاتم.
- سبل الهدى والرشاد للصالحي تحقيق:مصطفى عبدالواحد. مصر:المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني – ط دار الفكر.
- سنن أبي داود – للحافظ أبي داود السجستاني ط دار الحديث.
- سنن الترمذي – للحافظ أبي عيسى الترمذي ط ٢ دار الفكر – ١٩٨٣ م.

٤- السنن الكبرى لأبي بكر البيهقي مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

* صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣تحقيق: شعيب الأرنؤوط

* صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ط دار المعرفة بيروت.

* صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج.ط المطبعة المصرية.

* صحيح مسلم بشرح النووي للحافظ أبي زكريا محي الدين النووي.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني.

* فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري د/ سعيد بن علي بن وهب القحطاني.

* فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١١٥ دار القلم - دمشق.
الطبعة: السابعة - ١٩٩٨تحقيق: تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

* في ظلال القرآن أ/ سيد قطب - دار الشروق ط ٣١.

* الكامل في اللغة والأدب للمبرد.

* الكشاف في التفسير للعلامة الزمخشري ط الاستقامة ١٩٥٣م.

* لسان العرب لابن منظور

* لفتة الكبد في نصيحة الولد للإمام ابن الجوزي.

* المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري.

* محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني.

* مختار الصحاح لأبي بكر الرازي.

* المُدَارَاةُ وأثرها في العلاقات العامة بين الناس د. مُحَمَّد بنِ سَعْدِ بنِ عَبْدِ

الرَّحْمَن آل سعود مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - العدد ١١٤.

* المدخل إلى علم الدعوة للبيانوني.

* المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا

* المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي دار الكتب العلمية - بيروت.

* المسند للإمام أحمد بن حنبل - دار المعارف مصر - ١٩٦٤ م
تحقيق الشيخ /أحمد محمد شاكر.

* المعجم الكبير للإمام الطبراني - ط ٢ تحقيق أ. حمدي عبد المجيد السلفي

* مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للإمام العلامة الفخر الرازي.ط دار الكتب العلمية.

* مفهوم الحكمة في الدعوة الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد الطبعة: الأولى الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ١٤٢٢هـ.

* منهج التعامل مع أهل البدعة في وقت الفتنة للدكتور/ وسيم فتح الله

* موسوعة البحوث والمقالات العلمية ١٢٥/٤ ط المملكة العربية السعودية ١٤١٣ هـ.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - المقري التلمساني.

* نظرات في سورة المزمل للعلامة محمود مشّوح من مجلة البيان العدد ٦٥.

❋ ❋ ❋

الفهرس

الموضوع الصفحة

❋ ❋ ❋